خُطًى في الضباب

الكتاب: خُطَى في الضباب (خسوف/ رواية)
المؤلف: ذكرى لعيبي
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- بلوفديف- بلغاريا
Фирма Бадер

العدد: ١٤٦
الطبعة الأولى: يونيو حزيران / ٢٠٢٠.
١٠٣ ص؛ ٢١× ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنما تعبّر بالضرورة عن آراء ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة الوطنية صوفيا بلغاريا : ٢٠٢٠

(ISBN) (ردمك) الورقي 9786199105498
(ISBN) (ردمك) الإلكتروني
لوحة ووتصميم الغلاف والإشراف الفنّي: محمّد بن منصور.
الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السّويطي
للتواصل:
@dar-aldarawesh الدّراويش للنّشر والتّرجمة
@DarAldarawesh
daraldarawesh@gmail.com
WWW.DARAWESH.COM
ت.ف: ٠٠٣٥٩٨٨٧٨١٤٢٣٠، ص.ب: ٤٢١٠
شارع التّجارة رقم ٧- ستامبوليسكي- بلوفديف- جمهورية بلغاريا.

© كافة حقوق النّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتّقديم والبحث والاقتباس العادية ذكرًا للمصدر؛ فإنه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقيًا أو إلكترونيًا- أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التّسجيل الفوتوغرافي أو التّسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من النّاشر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.
*تباع النّسخة إلكترونيًا عبر موقع الدّار.

خُطىً في الضباب

ذكـرى لـعيبي

©
الدّراويش للنشر والتّرجمة
AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
WWW.DARAWESH.COM

بلوفديف -جمهورية بلغاريا
Plovdiv-Bulgaria
2020

الإهـــداء

إلى الغد الذي لن يأتي..

الدّل والدلال

غالباً ما نظنُّ أنّنا لم نجدْ يوماً مكاناً يتّسع لنا على هذه الأرض ، لهذا أحياناً نحبّ أن نتعامى لكي لا نفتح أعيننا على واقع مرير ، جديب ، وأحياناً أخرى ننسى أنّنا نساء!

يقال إنّها مدينة الحبّ والجمال ، ومدينة الكنوز التاريخية ، من تلك المدن الجنوبية الغافيةعلى دجلة بدلال ، المطلّة على جرف الحياة بأبنيتها الطينية وصرائفها وبساتينها وحقولها المحروثة.

من هذه المدينة انبثقت أميرة.

ابنة جميلة مدلّلة لعائلة وجيهة ومترفة ، تأخذ المرتبة الثانية بين الأبناء السبعة ، تقارب في حُسنها « بنت المعيدي» تلك المرأة التي يقال عنها إنّها ملكة جمال الأهوار ، أو كما تسمّى» موناليزا الشرق» ، عيون وسيعة بارقة ، وشعر أسود كأنّه الليل ، ينسدل على كتفين مرصوصتين ، بلون دم الغزال شفتاها ، وجهٌ يشبه انفلاق القمر.

عاشت أميرة طفولة مدلّلة ، وأنهت مراحل دراستها بيسر ، واتّصفت بالسكينة والوقار ، وحَسُنت هيئتُها وطريقتُها بالحديث مع كلّ من حولها.

كبرت ، وصارت أجمل ، لكنها كانت تغسل قلبها بالدموع كلّ يوم ، حتى لايتراكم عليه صدأ الذكريات المؤلمة...

كانت تؤمن بما يخطّه لها القدر ، كذلك تؤمن بما تقرأه العرّافة ، وغالباً ما

كانت تقرأ في خطوط يدها ، وتشير إلى حبيبٍ قادم ، تشير إلى ذلك منذ عقود.

عقود طويلة تزوجتْ خلالها ، وأنجبتْ ، لكن كان زواجاً تقليديّاً ، مذبحةٌ أُسمّيها ، قربانها سنواتها اليانعات ، مصير حياة بيد الأهل كالعادة في ذلك الزمن.

لم يكن الزوج هو الحبيب المنتظر ، بل كان الخطأ الذي ولد أخطاء.

عقود غابرة سحقتْ شبابها ، وتركتها كسيرة الجناح ، كلّ وقت تبكي على نفسها وعلى ما ضاع من أمسها وعلى الدنيا التي أشبعتها صفعاً ، حتى وطنها الذي غادرته عنوة ، لا تستطيع العودة إليه! تعود لمن ؟

لا أهل ولا أحباب هناك ، حيث غيبهم الموت.

صباحٌ مُقـدّر

كعادتها تتوسّد مخدّتها وهدبها مبلّل ، لكن صباحها ذاك اليوم كان مختلفاً ، مغلّفاً بأملٍ لا تعرف كنهه!

ذلك الصباح وجدتْ على هاتفها الجوال اتّصالاً من رقم لا تعرفه ، لكنّها أيضاً لم تهمله كما كانت تفعل:

-صباح الخير ، منِ المتّصل لطفاً ؟

بادرتْ بهذه التحية والسؤال ، ثمّ انصرفتْ لعملها ، لكن عينها كانت تنظر إلى الهاتف ، عسى أن يأتي الردّ.

-السلام عليكم ، أعتذر كثيراً ، ربما رنَّ هاتفكِ يوم أمس ، حصلتُ على رقمكِ من أحد أقاربكِ ، أتمنّى أن تكوني بألف خير ، ودعائي لك بمزيد من الألق والتميز ، مع خالص تحيّاتي. د.أحمد.

جاء هذا الردّ صباح اليوم التالي ، أو في حقيقة الأمر الوقت على الرسالة يومىء إلى عشرين دقيقة بعد منتصف الليل ، لكن أميرة فرحتْ بها ، خفق لها قلبها:

-أهلا بك دكتور ، أتشرّف بمعرفتك.

- صباح الخيرات والعافية ، لا أدري أنّكِ في هذا البلد ، لو كنت أدري لتشرّفتُ بلقائكِ حين قدومي لها...

- متى كنت هنا ؟

- جئتُ عدّة مرّات لعمل ما.

- نلتقي -إن شاء الله- في القادم من الأيام.

- إذا شاء الله... أتمنّى ذلك ، أنتِ تتذكرينني أم لا؟

- لا والله ، ليس صغراً لكنّه الزهايمر المبكّر.

- لا بالعكس ذهنكِ وقّاد دوماً...أراه في نشاطاتكِ.

- شكراً.

- أنا ابن عمّكِ.

- والنعم ، لكن أيّ عمّ منهم ؟

- عادت بي السنوات إلى أكثر من ربع قرن ، حين رافقتكم في رحلة لتناول الغداء على نهر الكوفة.

- أنت ابن عمو فرحان!

- نعم.

- نعم.

«نعم» قالتها وقلبها يخفق —لاتعرف السبب — عادت إلى سنوات طفولتها ، وهل هناك أجمل من سنوات الطفولة ؟ حيث الدلال والأهل والآمال المعلقة على الصدور.

تحدّثا كثيراً ، ليسا بحاجة إلى مقدّمة ليتعارفا على اسميهما أو طموحاتهما ، أو أنسابهما ، هما جسدان يجري في عروقهما دم واحد.

تحدّثا عن سالفات الأيام والليالي ، حياتهما ، أوضاعهما ، أولادهما ، البُلدان التي أوت همومهما:

-أنا أتذكّركِ حين كنّا صغاراً.

-معقولة!

-نعم ، صورتكِ مطبوعة في ذهني ، وحين رأيت صورتكِ في الإنترنت بأحد المواقع الثقافية أحسست أنّكِ ذاتكِ ، لم تتغيّري.

-لاتبالغ ، كبرتُ كثيراً.

-هذا تواضع منكِ -أمّ خالد- أو كما يحلو لي أن أسمّيكِ» أميرة» باسمكِ ، آنستُ بحديثكِ كثيراً ، وعدت إلى سالف الأيام ، نتواصل لاحقاً.

-مع السلامة.

خفقة قلب

عجباً لهذه الدنيا ، كم تغضبنا ثمّ ترضينا! كم تؤلمنا وتوصد أبواب الفرح بوجهنا ثمّ تنعشنا ببصيص أمل ، ونرضى حتى ولو كان قليلاً!

جلستْ أميرة مع نفسها كثيراً بعد هذه المحادثة ، حيناً تتذكّر الماضي بكلّ مافيه ، وأحياناً تتأمّل المستقبل ، فالماضي يبكيها إلى حدّ الألم ، والمستقبل يوجعها لأنّها لا تراه ، ولا حتى تستشعره كما تريد.

بعد أيام قليلة قرّرتْ أن تبعث له رسالة تبحث معه من خلالها شأناً يخصّ أولادها ، أو بالحقيقة حجة للتواصل.

بادرتهُ بتحيّة المساء:

-مساء الخير دكتور.

-مساء الخيرات والعافية ، افتقدتكِ تلك الأيام.

أسعدتها هذه الكلمات ، أوحتْ لها أنّ هناك من يفتقد غيابها ، وهناك مساحة لها في ذاكرة رجل لاينتمي إلى هذا الزمان ربما!

تحدّثا كثيراً ، كان صدره رحباً لمناقشة مستقبل أحد أبنائها ، لكنها شعرتْ أنها أثقلتْ عليه بالحديث.

حاولتْ أن تنهي المحادثة ، لكنّها ابتدأت حين قال:

-أنا افتقدتكِ ، ولا أخفيكِ اشتقت أيضاً.

يااااه ، يا أميرة ، هل هذا الرجل هو الحبيب المنتظر ؟

نعم هو ، هو ، ردّدتْ أعماقها.

لم يعد الصمت والحزن مجرد استسلام لقدر ، ولن تسمح أميرة أن يكون كذلك ، ما تشعر به الآن بركان ينتظر الأوان.

صار جهازها المحمول رفيقها الذي لا يفارقها أينما كانت ، في المطبخ ، في المكتب ، في السيارة ، حتى عندما تخلد إلى النوم لا تتركه فوق الطاولة الصغيرة القريبة من سريرها كما كانت تفعل من قبل ، بل صارت تضعه جنب وسادتها.

استمرّتِ المحادثات لأيام ولياٍل ، يتداولان فيها أحوال الأيام ، وقهر الأعوام ، لكنهما لم يتجرأا على البوح أكثر ، حتى قال ذات مساء:

-حبذا لو أراكِ الآن!

-الآن! شكلي لايسرّ الناظر.

-وليكن ، صورتكِ في ذهني قبل أكثر من ثلاثين سنة.

-يااااه.. معقولة ؟

-نعم ، حتى أذكر ماذا كنت ترتدين ، ما زالت مطبوعة في ذهني ، الأشياء الجميلة جدّاً لاتُنسى ، والحزينة لا تفارق الذاكرة أيضاً.

- وأنا أيّ منهما ؟

-أنتِ أول الأشياء الجميلة.

هنا ارتجف قلب أميرة ، اختلّ توازن عقلها ، تمنّت لو أنّ الزمن عاد بها إلى الوراء ، عاد كثيراً ، عاد عقوداً.

تمنّت لو أنّه أمامها في هذه اللحظة بالذات ليرى دمعة حارقة تدحرجت بصمت أسفاً على عمر مضى بضيم ، أين أنت ؟ وأين كنت ؟ قالتها لنفسها ، مع أنين قلبها.

-تألّمتُ حين سمعتُ خبر زواجكِ ، كنتُ مازلت أكمل دراستي الجامعية.

-لماذا لم تكن قريباً ؟ لم تفصح ، لم تلمّح.

قالتها بوجع ، بلهفة ، وكأنّها كانت تنتظر أن يبوح بشيءٍ يرضي شعورها ، إحساسها هذا الذي لن يخيب أبداً.

-كنت أفكّر أن أتخرّج من الجامعة ، ثمّ أفكّر بالارتباط العائليّ.

-ألم تشعر بندم ؟

-كثيراً ، إلى هذا الوقت.

-والله « ما بيّة حيل دمعة بعد» ، الزمن أخذ حقّه مني وأكثر.

-صعقتُ على حين غرّة عندما عرفت بزواجكِ.

-مَنْ المُلام ؟

-أرجعتني لذكريات لم تفارقني أبداً ، كنت أبحث عن أخيكِ بين الخيم في المعسكر ، كنت أتمنّى أن اسمع منه شيئاً مخالفاً لما عرفت ، لكنه أكّد لي ذلك.

-لاتبكِني ، لماذا ؟ لماذا سكتَّ ؟

-أعرضت عن الزواج إعراضاً كاملاً بعدها ، حتى بدأ والداي بالإلحاح ، وتزوجت بعد ثلاث سنوات ، لكنّي لم أجد التي في ذهني أو من تدانيها! هكذا كنتِ يا أميرة وما زلتِ.

هكذا كانتْ وما زالتْ.. أيّ قدر ، أيّ وجع ، أيّ فرح ؟

اختلطت المشاعر لديها ، ارجعي أيتها الأعوام ، توقفْ أيها الوقت ، اهدأ أيها النبض ، لماذا لم يأتِ من قبل ؟ قبل أن تختنق بدخان حروب لاهوادة فيها ، قبل أن تضيع وتتيه في مدن وحلة لم تنجب غير الوحشة ، آآه يا حزنها ، فما

بات لك معنى ، آه يا صرختها التي لم تصل صوتها إليه ، آه على أنفاسها التي تلفظها وحيدة ، آه على موتها ربما ، آه على موتها الذي سيصل إليه وإلى أهلها مثل نبأ يُقرأ كالغرباء.

-أسفتْ لأن تأخّرتْ وتألّمتْ حين تذكّرتْ

كانت هذه الجملة الأخيرة التي قالها في هذه المحادثة.

محادثة اليوم مؤلمة.

أخرجت أميرة من دهاليز نفسها الكئيبة ، أعادتها لطفولتها ، وذهبتْ بها لغدٍ ، أو ربما لبعد غد... بدأتْ تشتاق لرسائله ، لألم الذكريات ، لأمل الأمنيات ، لملاطفته بالكلمات.

غطاءٌ شرعيّ

-أنتِ من كنت أبحث عنها ، أنتِ ، أنتِ.

-أميرة زمان.

-مازلتِ أميرة بلون الحقيقة.

-المسافات تبدو ضئيلة وقريبة أمام أحلام الصادقين.

-أيقظتِ بداخلي أموراً كثيرة ، هل سمعتِ الشاعر الذي يقول:

وكيفَ أذكرهُ إذ لستُ أنساهُ

لم أنسكِ يوماً ، وكنت أتردّد على مدينتكِ ، أتمنّى رؤيتكِ ، لكنها غير ممكنة ، حتى انقطعتُ عنها تماماً بعد وفاة والدكِ ، فالناس تغيّرت ، والوجوه الخيّرة رحلت.

-نعم ، لم يتبقّ غير المواجع والوجوه الغابرة.

-كنت أخجل أن أسأل عنكِ ، لكنّني عرفت متأخّراً أنّكِ منفصلة عن زوجكِ ، لكن بعد فوات الأوان ، أريد أن أراكِ أميرة... أن ألتقيكِ

-كيف ؟

-لديّ سفرة قادمة ، ربما سأزوركِ.

-ستأتي لرؤيتي ؟

-نعم.. حبيبتي أريد أن أرى صورتكِ الآن ، كما أنتِ بدون أي تكلّف.

«حبيبتي!»قرأَتها بقلبها ، وعينها ، سمعتها بإحساسها ، هذه المرة الأولى التي ينطق بها ، ثمّ صارت ملازمة له ، حبيبته هي ، «حبّه الأزلي هكذا كانت

«تظنّ» ، وحبيبها هو ، حبّها الدفين بين أضلعها ، حبّها الذي لم تدركه إلّا الآن.

بعثتْ له صورتها كما هي ، بلا تكلّف.

ليتكِ قريبة منّي ، لطبعت كلماتي على شفتيكِ ، ورسمتُ جنوني فوق جيدك.

شعرتْ بخجلٍ بعد أن قرأتْ رسالته هذه ، لكنّها تجاوزت خجلها بمزحة:

- أنتَ ... (جدو)

- نعم ، أنا كبير و (جدو) منذ أن أصابني المرض قبل سنوات.

تألّمتْ كثيراً ، ودّتْ لو كانت بقربه هذه اللحظة ، لتضمه إلى صدرها ، وتقبّلُ جبينه ، لكن المسافات ، الحدود ، القيود. قالت :

- لاتقلق ، سنلتقي ، ستأتي ، ونخرج ، ونتمشى ، ونشرب القهوة معاً.

- لا أعتقد أنّ لهفي هذا يطفئه جلوس في مقهى ، أو نزهة ، أو فنجان قهوة... لهفي يطفئه غطاء شرعيّ ، وخلوة ننفض فيها غبار السنين.

غطاء شرعي!!

توجّستْ من هذه العبارة ، نقرتْ بوجع على روحها ، وتمتمتْ مع نفسها:

أيّ غطاء يقصد؟ يا إلهي لا أريد أن أعاني أكثر ، لا أريد أن يقصد ما أظنّ ، غطاء شرعيّ!

- كن لي غيمة تمطرني حبّاً لتروي صحراء حياتي ، وفجراً من خلاله تشرق أيامي القادمة.

- سأروي نبعكِ صفاء ، وأرتوي منكِ كي أُديم زهراتكِ ، تصبحين على خير.

- تصبح على خير.

حيرةُ أميرة

لم تغمض عينا أميرة ، لم تكن ليلتها عادية ، ولم ترد التفكير بما دار بينهما من حديث ، لم تكن تريد أن تسمع ما تظنّه ، لكن نداء قلبها هو الغالب هذه المرّة ، نداء قلبها وحده يزلزل أسماعها ، لرجلٍ جاء من غياهب الماضي ، له خفق قلبها.

أغلقتْ هاتفها ، وحاولتْ أن تقتنص ساعة أو ساعتين من ليلها لترقد ، وبين اليقظة والحلم سمعتْ أذان الفجر القادم من جامع قريب ، هذا الهديل الذي يوقظ خلايانا بصفاء ونقاء.

نهضتْ ، وتوضأت ، ثمّ صلّت الفجر ، بعدها لم تستطع أن تعود للنوم ، فتحتْ هاتفها لتبصر كلماته الرائعة:

نوماً هنيئاً حين ترقدين ، صباحاً مشرقاً حين تصبحين.

قرأتْ هذه التحية ، وأغمضتْ عينيها ، حتى طلعت الشمس ، وأشرقت على نافذتها.

قامتْ مثقلة الخطى ، لا تعرف لماذا ؟ رتبّتْ حالها ، وبعثت له تحية الصباح ، ثمّ خرجت إلى عملها.

ساقتهما الأحاديث هذا اليوم طويلاً ، عن العمل والأوضاع الراهنة ، كالعادة بعثت له بعض الكلمات التي كتبتها ، وخصته بها ، كان يفرح بها كثيراً ، ويشعر أنّها تميزه عن الجميع بما تكتب لهُ:

-كلماتكِ يعجز كثير من الفتيات كتابتها.

-المواقف يا بن عمّي تجعلني أكتب.

-ماذا أعني لكِ ؟

سؤاله جاء دون سابق إنذار- مثلما نقول — ماذا يعني لها ؟ ماذا تقول له ؟ لا تريد أن تنزف مشاعرها الآن ، فهي إلى هذه اللحظة لم تلتقه ، لم تتذكره إلّا من خلال ذكرياته هو ، لكنّها أحبّته ، أحبّته كثيراً:

- في هذا الوقت تعني الكثير ، ربما عندما نلتقي ستعرف أكثر ، لكن بكلّ تأكيد أكثر ممّا أعنيه أنا لك!

-لايمكن أن نلتقي في مقهى أو متنزه.

-هناك أمر أودّ أن تجد له تفسيراً ، كلما حدثتك اغرورقت عيناي بالدموع.

- دموعكِ غالية يا غالية ، أتمنّى أن أمسح دمعكِ.

-ستتعب يدك من مسحها.

-نكأت جروحي.

-جروحي تنزف طوال الوقت ، لكني أتظاهر بالقوة والقدرة ، لأتجاوز ضعاف النفوس ، سنتكلّم كثيراً ربما بعدد السنين التي مضت.

-كيف تزوجتِ ؟ ومن هو ؟ ولماذا افترقتما ؟ أريد أن أعرف.

-ستعرف كلّ شيء بوقته.

بالتأكيد سيعرف كلّ شيء بوقته ، لكن هل سيكون هناك متسع من الوقت للمعرفة ؟ المحادثة ما زالت مفتوحة ، لكن سادها صمت مطبق ، حتى بادر بسؤال الوجع:

-أخشى أن تفكّري بأمرٍ لا أستطيع القيام به ؟

- نعم.. وعرفت إجابته الآن ، كن بسلام ..ابن عمي.

-ليس المهمّ أن تعرفي الإجابة ، لكن المهمّ أن تعرفي الأسباب.

- معرفة الأسباب لاتغني عن الإجابة ، نحن بشر ، ولسنا أرفع من الرسل والأنبياء الذين يتزوجون أكثر من امرأة.

-أميرة ، لاتحكمي عليّ بالفناء.

-وماذا تقول للقدر الذي يحكم عليّ بالقهر الدائم طول العمر ؟ لهذا قلت لكَ جروحي تنزف كلّ يوم.

-وسأنزف معكِ دوماً ، ولن أتخلّى عنكِ أبداً.

-عش بسلام أحمد ، ودعني كما أنا أعيش تحت ظلّ حزني ، هكذا قدري لن يتغير.

- لديكِ أبناء ، ولديّ أبناء أيضاً ، وأنا وأنتِ قضينا دهراً في رعايتهم...إيثاراً منا ألا نخدشهم بأمر يحزنهم ، أو يؤثر في نفوسهم ، حتى لو كان ذلك يؤلمنا نحن.

أنا لم أصدّق أنّي وجدتكِ ، ولم أتمالك نفسي حين وردت منكِ رسالة ، أحببتكِ صغيراً ، وكبر حبّي معي ، ومازال حيّاً لا يشيخ ، ولا يموت.

وجعُ الفجيعةِ

آهِ يا أميرة ، آهِ على قلبكِ ، على الدنيا ، على الأقدار ، ألستِ أنثى من حقّها أن ترافق حبيبها أمام مرأى الجميع ؟ ألستِ امرأة من حقّها أن تمسك بذراع زوجها ؟ ألستِ حبيبته يا أميرة ؟ ألم يقل هذا ؟ هل هذه مطالب مستحيلة ؟ هل سترضين ؟ هل ستتجاوزين هذه الآلام ؟ هل ستكونين راضية وسعيدة ؟

-أرجو ألّا تحزني ، أنا لم أخرج بعد عقود لأزعجكِ.

-وهل لنا سلطان على أحزاننا ؟

أحزانها التي لم تفارقها حتى في فرحها ، وكأنها تستكثرعليها أن تعيش بهدوء ماتبقّى لها من عمر.

نعاتب منْ ياربّ ؟

-أميرة ، الصادق يجب أن يكون صريحاً مع من يحبّ.

-أحمد ، مادمت غير قادر على الارتباط ، لماذا تواصلت معي ؟ هل تعرف متى انفصلت عن زوجي ؟ولماذا ؟ ومتى غادرت الوطن ، وماذا لاقيت ؟ سلسلة جروح وأحزان ومساومات وقهر.

-لم أعرف شيئاً ، وسألتكِ من قبل.

-ولماذا تريد أن تعرف ؟ مالذي سيتغيّر ؟ ورغم هذا سأخبرك ، لكن دون أن تقاطعني:

تزوجتُ زواجاً تقليدياً ، رجل يكبرني بعقدِ كامل من الزمن ونيف ، كان ودوداً معي ، يحاول أن يسعدني بما يقدر ، انجبنا ولدين ، ثمّ صارت أحداث

عام ١٩٩١- بما يسمّى غزو العراق للكويت- فالتحق بصفوف الجيش، حاله حال آلاف الشباب العراقيّ آنذاك.

قربي من بيت أهلي خفّفَ وطأة الخوف والقلق وغيابه، الحروب مقيتة جدّاً، تسرقنا من أعمارنا وبيوتنا.

بعد انتهاء الغزو، والانسحاب الدامي للجيش، عاد أبو خالد لنا، كان متعباً، لحيته تكاد تضيّع ملامح وجهه، أذكر حين عانقته، عانقني ورائحة الموت والهزيمة تفوق رائحة البارود الملتصقة بملابسه.

عام ١٩٩١ هو ذات العام الذي أخبرني فيه أنّه يحبّ امرأة أخرى، ويريد الزواج بها!

كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ أسئلة تتزاحم برأسي، وجع لا يشبه وجع الحروب، ولا وجع الفقد، أنا مؤمنة لكلّ فراق وجع مختلف، لكن وجع ذبح الكرامة صعب، هذا ما شعرت به حين سألته لماذا، وأجاب: لأنّي أراكِ نصف امرأة.

بقيتُ مع نفسي أتساءل بذهول: كيف نصف امرأة؟ ألم أنجب له الأولاد؟ ألستُ صغيرة وجميلة؟ ألستُ بنت حسب ونسب؟

نعم أنا كُلّ هذه الأشياء، لكني عرفتُ تالياً المقصود بنصف امرأة!

نعم، التفاصيل مؤلمة ومملّة.

توصلنّا إلى أنّ الاستمرار بات مستحيلاً، فصار الانفصال أقرب الحلول وربما أيسرها.

بعد الانفصال بعدة شهور ترك البلاد، وسافر، ثم تزوج بتلك المرأة التي أحبّها، وبقيت أنا أرعى الأولاد، حتى كبروا وتجاوزوا مرحلة الطفولة، ثمّ جاء

جدّهم بحيلة قذرة ليأخذهم ، وللأسف انطلت عليّ ، وصدقّتُ ، صدقّتُ لأنّي لم أتوقّع الكذب من رجلٍ «بلغ من العمر عتيّا».

ادّعى أنّ أبا خالد يريد أن يعيدني لعصمته ، لكن الظرف في الوقت الحالي صعب ، لهذا سيأخذ الأولاد إلى أبيهم ، ليخلصهم من جو الحروب والدمار الذي يغلّف سماء الوطن ، ثمّ سيأتي بتوكيل ليتمّ عقد مهر من جديد حتى أتمكّن من اللحاق بهم.

ليتني لم أصدّق...ليتني لم أعطهم إليه...

وهكذا أخذ الأولاد ، وسافر إلى دبي ، وقلبي موجوع ، حيث كانت السيارة التي تقلهم تسير أمام سيارتنا ، أراهم يلوحون بأيديهم لي وكأنّه الوداع الأخير ، دموعي ، ونبض قلبي ، وخلاياي تتبعهم حتى وصلنّا قريب « طريبيل» الحدود الفاصلة بيننا وبين الأردن ، ذلك الوقت كان السفر برّاً ، فالمطارات ما زالت مدمرة ومغلقة منذ حربنا مع إيران.

كانت أيديهم الصغيرة تلوح بالوداع ، دموعهم اليتيمة تحرق فؤادي وأنا كنت امرأة مفجوعة بفراق أولادها.

لكن أنا نفسي من تسبّبت بفجيعتي! نعم ، لهذا أحياناً أقول أستحقّ هذا الحزن!

لأنّي آمنت بطيبة قلبي ، لأنّي صدّقتُ النيات الظاهرة ، لأنّي سمعت كلام أحد أقاربي عندما قال :

أعطيهم لوالدهم ، ستكون الأمور على مايرام.

آهٍ على خديعتي الكبرى..

بعد أن وصلت سيارتهم إلى معبر « طريبيل »عدنا نحن إلى بغداد ، بينما هم أكملوا رحلتهم.

ليتني تبعت إحساسي الرافض لنزعهم من حضني ، لوفرّت عليّ آلام وضيم سنين.

انقطعت أخبارهم ، ولم أعرف آنذاك ماذا أفعل ؟ بمن أتّصل ؟

بعد أشهر اتّصل جدّهم ، ليطمئنني ويخبرني أنّهم بخير ، والتحقوا بمدارس جيدة ، وصحتهم حسنة ، فاطمأنت روحي ، لكني عاتبته عن سبب الانقطاع وعدم التواصل معي لمعرفة أخبارهم أو سماع صوتهم ، كذلك تلهّفتُ لمعرفة إن كان قد جلب معه التوكيل الذي وعدني به ، لكنّه صدمني:

-انسي الموضوع بابا ، عيشي حياتكِ ، وأولادكِ بخير.

-كيف ؟! ألم نتّفق على هذا الموضوع ؟

-نعم ، لكن إن لم أقل لكِ هكذا لم تعطني الأولاد!

-ماذا!؟ هل هي حيلة ؟ أخذتم أولادي مني بالحيلة ؟

ثمّ لا أذكر أن أغلقت سماعة الهاتف أم وقعت من يدي أم ماذا ، في ذلك الوقت أصبت بانهيار نفسيّ شديد دخلت على أثره إلى المستشفى ، شعرت بغبن ، شعرت أنّ أولادي ضاعوا ، وأنّي لن أراهم ثانية.

بعد أن شفيت قرّرت أن أسافر إلى الإمارات ، حيث يقيمون هناك ، وكان لابدّ أن أجتاز عوائق استخراج الجواز والفيزا والسفر ورفض العائلة للأمر برمّته.

دربٌ مجهولٌ

سافرتُ برفقة أخي إلى الأردن ، أقمتُ مع عائلة عمّة أختي « أم زوجها» في منطقة تدعى «جبل الحسين» أنتظر وصول تأشيرة دخول الإمارات مايقارب ثلاثة أسابيع.

وصلت التأشيرة ، وسافرت إلى دبي ، لم أعرف شيئاً سوى مكان عمل والدهم ، ولم أعرف أحداً أيضاً.

بعد أن وصلت مطار دبي الدولي ، اتّجهتُ إلى أحد الفنادق ، وضعت حقائبي ، ثمّ اتّجهت مباشرة إلى مكان عمل والد خالد.

تُرى ماذا سيقول أبو خالد ؟

-أم خالد!! كيف جئتِ هنا ؟ ماالذي أتى بكِ ؟

-أولادي...أين هم ؟

-الحمد لله على سلامتكِ ، الأولاد بخير ، وهذا مكان عمل ، تعالي نذهب لتلتقي بهم.

تركنا الدائرة ، واتّجهنا إلى حيث يسكنون ، بات الوقت مملّاً ، الطريق طويل ، أو هكذا حسبته ، كلّ شيء رتيب ، إلا نبضات قلبي تتسارع ، تتلهّف لرؤيتهم ، كيف لا ، وصار على فراقهم العام ونصف العام.

وصلنا إلى البيت ، وكانوا ينتظرون عند باب العِمارة ، لا أعلم هل كانوا يعلمون أنّي أنا القادمة لرؤيتهم ؟

المهمّ أنّي وصلت ، وقفت السيارة وهم ينظرون ، ترجّلتُ ، ركضتُ صوبهم ، نسيت الشارع والناس وكلّ شيء ، عانقتهم ، ضممتهم إلى صدري ، أقبّلهم وألثمهم تارة ، وتارة أخرى أنظر إلى وجوههم.

كانوا بحالة استغراب ، اندهاش ،غير مصدقين:

-ماما أنتِ موجودة ، أنتِ حيّة ؟ قالها ابني الأصغر بتعجب

إذاً هذا سبب استغرابهم... أنا في عداد الأموات أو هذا ما زرعوه في ذاكرتهم ، أنّ أمّهم ماتت ، كيف ، ومتى ، لايهم ، المهمّ أنّها غير موجودة!

- لا أريد لزوجتي أن تعرف أنّكِ هنا داخل الدولة ، حتى لاتجرح مشاعرها!هذا ما أوصاني به أبو خالد.

بلعتُ الغصّة ، وقلت: لن تعرف ، أنا جئت من أجل أولادي ، أراهم وأعود من حيث أتيت.

شعرتْ أميرة أنّها تختنق ، فلم تكمل الحديث مع أحمد ، شعرتْ وكأن شريط فيلم يعرض أمامها ، شريط مرَّ عليه سنوات طوال ، لكنّه لم يعتق ، اختنقتْ وبكتْ ، شهقتْ ، فلم تستطع أن تكمل المحادثة.

«القلوب آنية الله في أرضه ، فأحبها إليه سبحانه: أرقها وأصلبها وأصفاها» وهكذا كان قلب أميرة.

جلستْ مع نفسها ، تندب طيبة قلبها التي استغلّها الكثيرون ويظنّون أنها ضعف أو غباء ، تندب حظّها ، تندب صفاء نياتها.

وبينما هي غارقة في محاسبة نفسها ، ودموعها تسيل على خدّها ، وصلت رسالة من أحمد:

«أعتذر أثرت فيكِ مواجع أحببت أن أعيش تفاصيلها».

جاءت رسالة أحمد هذه وهي في أعمق حالات حزنها وألمها وشجونها وجروحها التي لا تبرأ ، فالحال لا يرممه شيء ، القلب مكسور ، والجسد معلول.

كانت تبكي بنواح ، تذكرتْ فقد الأحبّة والأهل ، ضياع نفسها ، فلم تستطع الردّ على رسالتهِ.

وهي في غمرة حزنها رنَّ هاتفها ، نظرتْ ، ،خفق قلبها ، إنه أحمد!

جاءها صوته الحبيب ، صوته الذي توقّعت أن تسمعه هذه اللحظة ، إحساسها كان يقول إنّه سيتّصل ، أحياناً نكون ممتنين لأحساسنا ، لأنّه بوصلتنا في كثير من الأمور.

شعرتْ أميرة بصوت أحمد يلتصق بحنايا أضلعها ، يلتصق بكلّ خلية ، تكلّما بلا ملل ، وكلّ منهما يتسابق لسماع المزيد.

مرّتْ ساعة من الزمن وربما أكثر وهما يتجاذبان أطراف الحديث الحلو والمرّ في ذات الوقت.

انتهت المكالمة.. لكن أحلام وآمال أخرى ابتدأت ، بعثتْ له عبارة معناها أنّ بعض الأشخاص كالأوطان البعد عنهم غربة ، ردَّ عليها بعبارة أعمق وأغلى:

-أنتِ الآن لديّ أغلى حتى من الوطن ، فالوطن ضاع بيد اللصوص.

لا تقتلْ حبّكَ لي بالخوفِ والقلقِ

-قل لي كلمة أودّ أن أسمعها.

-أحبّكِ ، أحبّكِ ، أحبّكِ

ذات نهار سألها إن كان هناك أحدٌ ما يعرف بأمر حديثهما أو علاقتهما! استغربتْ وانزعجتْ ، شعرتْ أنّ ثقته بها متزعزعة.

-لا تقتل حبّكَ لي بالخوف والقلق ، وعدتكَ لا أحد سيعرف ، هناك خطوط في حياتنا متوازية ، لكن تحت بنود واهمة نقوم بكسر هذه الخطوط ، أنت لا تعرفني ، عندما أحبّ أحبّ من أعماقي ، بقلبي وعقلي ، أضعُ المحبوب أمام عيني ، لا أخاف ولا أقلق ، بأيدينا حياتنا وسعادتنا وحزننا ، لا تسمح للظروف أن تفرض علينا ما تريد.

-لابدّ أن تعرفي شيئاً ، حبّكِ أزلي لا يمنعني عنه شيء ، وهذه العقود الطويلة شاهدة على ذلك ، لكن طبيعة علاقتي بعائلتكِ والآخرين تعتمد على قواعد الاحترام البالغ ، لا أريد شوشرة المنافقين تؤثّر على صفاء التواصل.

حبيبتي ، أنا لا أخشى على حبّي لكِ ، لأنّي أعرفه كما أعرف نفسي ، حتى لو اخترتِ طريقاً آخر أو قراراً آخر ، أو أدرتِ وجهكِ عنّي يوماً ، فلن أفرط في حبّي لكِ أو تعلقي ، كما حفظت ذلك على مرّ السنين ، أحببتكِ دون علمكِ ، وعانيت دون علمكِ ، وسأبقى أحبّكِ ، مادام في العمر بقية.

ياإلهي إن كان أحمد يحبّ أميرة بهذا القدر ، ماالذي يمنعه من الارتباط بها بصورة علنية ؟

لكن لحظة...هو قال «غطاء شرعيّ» هل هذا يعني أنّه يريد أن يرتبط بها بالخفاء؟ نعم ، هو طلب منها زواجاً مؤقّتاً ، وعندما سألته عن سبب هذا الطلب الفجّ ، قال إنّه الحلّ الأفضل ،انعكاس ذلك على الأولاد والحياة يختلف كثيراً ، الحفاظ على الحبّ بدون عواقب سلبية أو مخالفات شرعية لايكون إلا من خلال العقد المؤقّت ، وكلّ ماتحتاجه الزوجة ممكن للمحبّ أن يلبيه ، هذا ما أدلى به..

من الصعبِ أن تقتنع أميرة بهذا الرأي..كيف لا وهي تعرف تماماً معنى أن تكون — امرأة متعة — حيث يحقّ له الغياب عنها ولا يحقّ لها مطالبته بالمبيت ولا نفقة ولاميراث وربما لايريد أن يربطهما طفل!

كيف هي أغلى من الوطن بهذا الوضع المقيت؟ مكانة مشبوهة ، دون رفعة.

لماذا الرجال يعطون لأنفسهم حقّ التسلّط حتى بالمشاعر؟

لماذا يؤطرون علاقات الحبّ وفق أمزجتهم؟ يحاولون الوصول لغاياتهم بطرقٍ غير ذي زرع!

تلك الليلة لم تستطع النوم ، كُلّ ما بها يوجعها ، هناك مقولة مفادها أنّ قلب المحبّ موضوع بين جلال محبوبه وجماله ، فإذا لاحظ جلاله هابه وعظّمه ، وإذا لاحظ جماله أحبّه واشتاق إليه.

أميرة عشقت أحمد وأحبّته بكلّ جوارحها ، نسيت وربما تناست أنها لن تكون زوجة شرعية ، وأنّ الغطاء الشرعيّ الذي يتحدّث عنه أحمد وغيره الآلاف من بني جلدته ، ماهو إلا سقف واسع الثقوب ، حجّة لإرضاء نزواتهم وغرائزهم.

والقوارير.. القوارير ، تصدق كلّ ما يقال لهنّ في لجة العشق إن عشقن رجلاً!

«ربّ أغسل قلوبنا من الأوجاع» بعثتْ له هذه الرسالة ، وكانت تشعر أنه لم يرقد أيضاً ، ردَّ عليها سريعاً ، فتيقنتْ أنّ إحساسها صدق:

- كنت أريد أن أكون زوجة معلنة.

-أنا أحسست أنكِ تتوقعين اتصالي بكِ من أجل لذة أو إشباع غريزة معينة ، وأحسست أنّكِ فهمت أنّني أبحث عن زواج مؤقّت لأجل المتعة ، وأحسست أنّكِ تعتقدين أنّي سأتركك يوماً ، لذلك شعرت بالظلم.

عجباً... وهل وصل العلاقة غير المكتملة إلا نوع من أنواع الظلم الذي يمارس على النساء الأرامل والمطلقات وذوات العوز الماديّ ؟

هل مشاعر الحبّ تغفر هكذا خطيئة ؟ تُبيح ممارسة الجنس تحت أغطية متهالكة ، بالية ، يعرف أصحابها أنّهم بعد وقتٍ معلوم كلّ يذهب إلى مخدعه ، وما هذا العقد سوى خديعة كبرى لانتهاك لحظات المفترض لها قدسيّة أكبر وأعمق.

أيّ حبّ هذا يُجيز لذكورة الرجل هيمنة سقوط خاطر امرأة لاحول لها ولاقوة ، امرأة آمنت بأنّ الحبّ والرجل هما المبتغى و الخلاص من تعب الحياة.

وجودكَ في حياتي
أعطى الصباحاتِ جمالاً

-صباحكِ يختلف عن الصباحات الأخرى ، جميلة أنتِ بكل شيء.

-وجودكَ في حياتي أعطى الصباحات جمالاً.

أحياناً عندما نتعمّق أكثر في علاقاتنا مع الآخر ، تنتابنا مشاعر الفرح والحزن في آنٍ واحد ، مشاعر يتخلّلها الندم لسكوتنا الذي يقتلنا حين نكتشف أنّنا ضيّعنا فرصة اللقاء من سنوات ، السكوت أحياناً ليس من ذهب.

خاصّة عندما نُحبّ..

أحمد تزوج من فتاة كانت تدرس معه في الجامعة ، حيث كانت هناك محاولة لإلحاق الأذى بها من قِبل عناصر « حزب البعث » كونها لم تنتمِ للحزب ، وكونه مسؤول شعبة الطلبة ، حاول أن يخلصها ويجد لها مخرجاً.. هكذا تعارفا.

لم يكن يفكّر بالزواج منها بداية ، حسب ما أخبر أميرة ، ولم يحصل بينهما لقاء خاصّ أو عاطفيّ ، لكنه بعد أن يئس من لقاء أميرة ، وبسبب إلحاح الأهل تزوج منها!

أحمد يقول لأميرة إنّه الآن لا يرى النساء كما هُنّ ، بات يرى صورتها فيهنّ ، حتى مع زوجته اختلفت جميع الأمور..

تبتسم أميرة ابتسامة الأنثى التي قهرت كلّ النساء دون أن يعرفن..هكذا عندما تعشق المرأة الثكلى.

تبتسم من أعماقها ، تضحك ، وتخشى أن يراها أحد فيسرق منها هذه الفرحة الهشّة..

في المساء طلب أحمد من أميرة أن تكمل له قصتها ، قصة وصولها إلى الدولة التي فيها أولادها ولقاءها بهم ، تنهّدتْ :

جلستُ في فندق في بداية الأمر ، وكان الأولاد يتردّدون علي ، وكان في نيتي أن أعود حال انتهاء مدة الزيارة ، لكنهم طلبوا مني البقاء ، لأنهم كانوا أشبه بالخدم لزوجة أبيهم ، وكانوا بحاجة لأن أكون قربهم ، فقرّرت البقاء لاحتضانهم من جديد ، وبدأتْ رحلةُ شقاء أخرى تتلخّص في البحث عن عمل وسكن وإقامة ، فالبقاء هنا لابدّ أن يكون بشكلٍ قانونيّ وكفيل عمل.

انتقلت من الفندق إلى سكن مشترك مع فتاة من جنسية عربية تدعى «نوال» فكانت نعمَ الأخت والعون ، ثمّ بحثت عن عملٍ ،

وعملت في مجالٍ بعيد تماماً عن تخصّصي وشهادتي ، فقط لتأمين الإقامة التي تتيح لي البقاء في الدولة بصورة شرعية.

عانيت ما عانيت من قِبل أبيهم وزوجته وكفلاء العمل ، تارة تأتي زوجة أبيهم وتهدّد وتطلب مني مغادرة الدولة ، وتارة أخرى يتّصل هو يشتم ويسبّ ويطلب مني الرحيل وتركهم يعيشون بسلام ، وكأنّي الغول الذي يخيفهم ، وكلما عملت في مكان بدؤوا بإثارة البلبة حتى يتمّ إنهاء خدماتي ، فأخرج وأبحث عن عمل آخر ، أما مساومة أصحاب بعض المؤسّسات على نيل مبتغاهم مقابل كفالة عمل فهذا وحده قصة.

شعرتُ بالتعب والمرض من هذه الحرب النفسية المدمّرة ، فقررتُ إما أن أعود بأولادي إلى العراق ، أو أبقى لأجلهم وتبدأ مرحلة التحدّي.

اقترحتْ عليّ نوال أن أبقى.

بقيت... وليتني لم أفعل.

تعدّدت صور الحقد والكره من قبل والدهم وزوجته ، خاصة بعد أن أخذتُ الأولاد عندي ، حتى وصل الأمر بهم إلى تشويه سمعتي بين الناس ، فلم أبالِ..

قضيت أجمل الأيام مع أولادي ، نذاكر الواجبات المدرسية ، ونخرج للتنزّه أو التسوق ، لكن لم تدم طويلاً.

-في أيّ سنة حدث هذا ، هل بعد وفاة الوالد ؟

-قصدك بعد اغتياله ؟

لم يبق الحال ، حيث قام بقطع الإيجار ، وأخذ الأولاد مرة أخرى ، فالأجر الذي كنت أحصل عليه لا يسدّ مصروف البيت والإيجار والاحتياجات الأخرى ، تألّمت كثيراً ، خاصة وبعد أيام من انتزاع الأولاد من حضني مرة أخرى ، اضطررتُ أن أترك العمل ، وقرّرت العودة إلى العراق.

أقــدارٌ

الأقدار تدخّلت مرة أخرى في مسار حياتي...

وأنا في خضمّ هذه الدوّامة وهذا التوتّر والتيه وعدم الاستقرار والبؤس والحزن ، زارتني « هدى» وهي زميلة كانت تعمل معي ، زيارتها مفاجئة بالنسبة لي ، وربما مقدّرة ، أو مقصودة ، لا أدري!

تجاذبنا أطراف الحديث عن هموم العمل وصعوبة الإقامة ومعاملة بعض الأشخاص ، فكانت لها مدخلا سهلا لطرح ما جاءت لأجله:

-أميرة هناك رجل يرغب في الزواج منكِ ، وبعثني لآخذ رأيكِ ، هو يحبّكِ ويقدّركِ ، أقلُّ شيء يؤمّن لكِ البقاء هنا قرب أولادكِ ، ويكونون تحت نظرك .

-هل أعرفه ؟

-نعم ، كان زميلاً لكِ في العمل السابق.

«رضيت بالذي هو أدنى» وكانت ألعوبة حقيرة لكسر أنفي ، لأنّي اكتشفت لاحقاً أنّ هذا الرجل صديق لأبي خالد وزوجته ، لكن انتهى الأمر ، والفأس وقعت بالرأس كما يقال.

حاولتُ أن أؤثث حياتي من جديد ، أن أضع بصيص أمل لأعيش من أجله ، لكن « وائل» وهو اسم الزوج الثاني كان كتلة من القهر والمعاملة السيئة ، عراك وخلافات وأوهام وبُخل ، فلم ولن نتفق أبداً ،أبداً.

بعد عام من زواجي الثاني ، دخل العراق في منحنى سياسي خطر ، كانت الأوضاع هناك قلقة ومؤشرات على أنّ البلد سيدخل حرباً غير متوازنة.

الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ أو معركة الحواسم ، أو حرب الخليج الثالثة ، مسميات كثيرة لمعنى واحد ، لهدف واحد ، لتدمير روح العراق ، لتمزيق رئتيه ، بما يسمى «ائتلاف الراغبين» !

كنت حينها مثقلة بهموم خطيئة زواجي ، لكنّي أتابع على شاشة التلفاز كيف تتقدّم الدبابات والمدرّعات الغازية باتجاه العاصمة بغداد ، كنت أتابع سقوطها والألم يعصر روحي ، دموعي تسابق صوت بكائي ، احتجت إلى سماع أيّ خبر عن أهلي هناك ، عن المدن ، النواعير ،النهر..

لم أسمع سوى أنّ : بغداد سقطت بيد قوات التحالف!

شعرت حينها بأنّ شيئاً بداخلي انهارَ ، دُمر ، فالعراق لم يتحرّر ، بل قُيّد بأصفاد من جهل وتخلف وفتنة ، العراق كُسرت أضلاعه ومازال يئنّ..

لم يستمرّ زواجي طويلاً ، فقد حصلت على الطلاق.

قبل الطلاق كنت قد حصلت على وظيفة مرموقة تناسب تحصيلي العلمي وخبراتي ، توفقت بها ، واعتمدت على نفسي .

ربما الآن تتغير نظرتك لي ، لكن هذا واقع مرير عشته ، لا بدّ لك أن تعرفه ، فضّلتُ الزواج مرة أخرى على نظرة الذئاب التي كانت تحاصرني ، والمساومات القذرة من أجل الحصول على عمل أو إقامة مشروعة ، ولم أكن أعلم أنّي وقعت في بؤرة بائسة أشنع مما تعرّضت له ، كلّ هدفي وأملي كان البقاء قرب أبنائي.

-لماذا لم تعودي بعد طلاقكِ ؟

-كنت أتمنّى أن أعود ، لكن باب الأهل أغلق بوجهي ، كما وضع العراق بات أصعب.

صنعتُ نفسي من جديد ، وحافظت على اسمي واسم عائلتي ، وأصبح لي مركز وكيان ، وهذا مهمّ بالنسبة لي.

هذا الشريط من الذكريات جعل أميرة تدخل في نوبة بكاء ونواح ، لكن شعرت بارتياح ، فما كان مخبّأ بالذاكرة ظهر ، طالما كان قلبها مُثقلاً بهذه الهموم ، طالما كانت تبحث عن رجلٍ يقاسمها هذا العناء ، أو هكذا هُيّئ لها..

«قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته»

يحاول أحمد أن يبين لأميرة أنّه بات يحبّها أكثر ، وأنّه يحترق لزواجها ثانية من رجلٍ لا تعرفه ، ويلومها لهذا الزواج موضحاً أنّه لاقيمة لبقائها وإقامتها في دبي مع هذه المعاناة ، حتى وإن كان السبب أبناءها ، وهولايعلم لولا بقاؤها لانتهى الأمر بأولادها إلى الفشل بحياتهم..

باتت أميرة قلقة بعد أن حكت لأحمد قصة زواجها الثاني ، فنحن نعرف كيف يفكّر الرجل الشرقيّ بامرأة مطلّقة مرتين..

بدت ساعات الليل طويلة ، صداع شديد لازمها ، أفكار عدّة ومخاوف وقلق وألم يعتصر روحها ، أخذتْ بعض الأقراص المهدّئة ، لتساعدها على النوم قليلاً.

نامتْ ، لا تدري كم من الوقت ، لكنّها ساعات قليلة وشقشق الصبح.

ضبابُ الأيـامِ

أحمد بدأ يفكّر بحلول موضوعية لحال أميرة ، حلول كانت تحسّها قبل أن ينطق بها:

- أميرة ، أفضل شيء لكِ أن تسافري إلى بلد أوربي ، تأخذي إقامة وجنسية ، وستكون لكِ عدّة خيارات بعدها ،حتى لو لم نقترن.

ما أقصده إنْ لم يوفّقني الله ، وأحقّق ما في ذهنكِ فوضعكِ في بلد أجنبيّ سيكون في أمان ، لأنّ الضمانات الصحية والاجتماعية جيدة ، ولا تحتاجين إلى أحد.

- وأنتَ خلال هذه الفترة والفترة القادمة ستكون معي أم لا؟

- أنا لم يتغيّر موقفي السابق ورأيي بالموضوع ، لن أتركِ ، وأبقى أحبّكِ ، لكن الزواج الدائم والمعلن صعب التحقيق الآن.

الدنيا شحيحة مع أميرة ، شحيحة جدّاً ، رغم أنها لم تطلب المعجزات أو المستحيل ، لكن يبدو هذا نصيبها إن كنا نؤمن بالنصيب!

بدأتْ تفقد الفرح الذي شعرتْ به في أول الحديث مع أحمد ، ضباب كثيف يغلّف ملامح مستقبلهما ، أو هكذا تراءى لها ، خاصة بعد أن وضّح لها أحمد صعوبة الزواج المعلن!

وبعد أن طلب منها السفر واللقاء به في دولة أخرى غير دبي ، بحجة التغيير من رتابة العمل والحياة اليومية ، والمقصود اللقاء دون قيود .

هاتفتْ صديقتها فاطمة ، اتّفقت معها أن تزورها في بيتها ، كانت بحاجة لآخر يشاركها هذا الخوف والقلق والتوجّس ، لنفس تفهمها ، وروح تستوعب همّها ، الصديقات رئة ثالثة نتنفس من خلالها إن خنقتنا الحياة.

تعرفّت أميرة على صديقتها اللبنانية فاطمة في مكان عملهما ، فتاة جميلة تلثغ بلهجة عربية محبّبة للنفس ، صبوحة الوجه ، نقية الروح.

لكنّها أيضاً ذات حظّ متعثر!

عند العصر التقت أميرة بصديقتها فاطمة ، كانت سعيدة جدّاً بزيارتها ، فالغربة موحشة دون رفقة نقيّة وصادقة.

لاحظت فاطمة الارتباك والقلق بشكلٍ واضح على وجه أميرة ، فحاولت تخفيف ذلك بالحديث عن موضة الموسم للأزياء والعطور وألوان الحقائب ، ثمّ انتقلت بالحديث عن علاقتها بمؤيد ، ذلك الشاب البصري المملوح ، وعدها أنه سيزورها الأسبوع القادم ، وربما سيعلنان خطوبتهما.

-فاطمة..أريد أن أنهي علاقتي بأحمد!

هكذا قاطعت حديث صديقتها.

ذُهلت فاطمة ، فهي تعرف مقدار حبّ أميرة لأحمد ، ما الذي جعلها تتّخذ هذا القرار ؟

-أحمد يريدني « زوجة متعة» ، محطّة استراحة ، وعاء رخيص لتفريغ غرائزه ، كيف يقول إنه يعشقني.. وإني عنده أغلى من الوطن..وإني حلم عمره..؟ لماذا أتعلّق بالرجل الخطأ ؟

لاتعرف فاطمة بما تردّ على صديقتها ، هي الأخرى مرّت بهكذا تجربة ، تذكّرت وجعها وما لاقته...

ارتبطت برجل عراقي ميسور الحال ، كان يتردّد على الإمارات بحكم عمله ، أحبّته دون أن تلتفت لأيّ اعتبار آخر.

له زوجة وأولاد في بغداد ، وأخريات في الدول التي يسافر إليها- هذا ما عرفته تالياً- لكنّها تعلقت به ، تصدّقُ كلّ ما يقوله.

كانت تستوحش الوقت الذي يمرّ دون أن يهاتفها ، عقدت عليه آمالها ومستقبلها ، بل حياتها بأكملها.

وافقت أن ترتبط به بعلاقة منقطعة ، ولا أعرف كيف أقنعها ، لكنّها كانت فرحة ، وحين يسألها أيّ مخلوق تردّ بأنها متزوجة!

جنون العشق ، وتخبط المشاعر ، وزمجرة الأحلام ، والتحليق بأجنحة من قشّ لا أمان لها.

كان يطمئنها أنهما سيعيشان حياة سعيدة ، تنسيها غربتها ، وأنه سيرتبط بها بشكلٍ دائم حالما يرتّب أوضاعه.. ربما هي في قرارة نفسها تعرف أنهما سيفترقان ، لكنّها كانت لاتريد أن تفلت سحابة السعادة التي غطّت سماء غربتها.

عندما نصل إلى مرحلة أنّ الكلمات تسكت حين ننطق اسم الحبيب ، أو الزمن يتوقّف عند حدود طيفه ، مرحلة فاصلة بين الحقيقة وبين الخديعة المتسترة تحت أغطية بالية ، عندما نصل لتلك المرحلة ، سنشقى في العودة والبدء من جديد.

دامت علاقتهما فترة طويلة ، فترة كافية أن تشعر بعلامات الحمل.

هاتفته لتخبره أنّها حامل ، ولابدّ أن يرتبطا بشكلٍ رسميّ ومعلن لتخلص

نفسها من مسؤولية السؤال ونظرة الناس ، ولتطمئن أنّ طفلها يترعرع وسط بيئة طبيعية.

لم يكن لديها أدنى شكّ بأنه سيفرح وينفذ وعده. خاصّة أنه كان يحدّثها بكمية حبّه للأطفال ، قال لها جملة واحدة ، أرعبتها وغيّرت مجرى حياتها للأبد:

-وهبتكِ المدّة المتبقية ، لم تعودي على ذمّتي ، وتصرفي بهذا الحمل ، وأيضاً أنهيت أعمالي في هذا البلد!

مرّت سنة كاملة ، سقّطت خلالها حملها ، وفقدت مأوى بويضاتها بسبب الخطأ الطبيّ الذي تسبب بالنزف واستئصال الرحم.

-إذا كنتِ تريدين نصيحتي يا أميرة فاتركيه ، نحن نساء تعِبات لسنا بحاجة إلى أغطية من ورق ، أو رجال جبناء.

زوجة بعقدٍ مؤقّتٍ

كيف نحبّ شخصاً لم يكن يعني لنا شيئًا ، لم نعرفه ؟ نحبّهُ من خلال حبّه هو لنا ، من خلال تفاصيل جميلة ربما هو افتعلها ليقنعنا بمشاعره!

طالما تبادر إلى ذهن أميرة هذا التساؤل.

مرّتْ أيام قلائل على زيارتها لصديقتها فاطمة ، تلك الزيارة التي جعلت مشاعرها متبعثرة ، مشوّشة.

أميرة عاشت سنوات طويلة قرضت من صحتها وشبابها ، سنوات مَشت فيها على فوهات البراكين ، قطعت الفيافي ، وصاحبت المنافي ، ارتطمتْ روحها بفجوات من عصب الريح ، وأيقنت أنّها تسير فوق جسرٍ من الأحزان ، تتمنّى لو ينقطع لتركب موج طيوف الأمل.

قبلَ سنين ربما لو بحث عنها والتقيا لحجب عنها غمامة الضيم ، وأطعم عمرها نوراً ، لزرع في أرضها ورداً ، وأبعدها عن الشوكِ والخوف والذلّ والضياع والاغتراب.

كان جلّ ما تريده بسمة نقية ويد حانية تمسح دموعها وهمومها ، ترنو إلى فرحة تلغي الأماسي الباكيات.

«بعض المنعطفات قاسية ، لكنها إجبارية لمواصلة الطريق»

ذات صباح كتب لها أنه لن يقدر أن يتواصل معها طيلة اليوم ، ربما سيكلّمها في المساء ، لم تبالِ كما كانت تفعل ، لكنّها كانت تنتظر حلول المساء ، هي متخبطة ، تستعجل كلمة يقولها لتتّخذ قرار إنهاء العلاقة.

كانت تظنّ أن لا أحد مثلهُ ، لا أحد يشبهه ، هذا الرجل الذي بعثَ فيها روح الأنثى من جديد ، الذي أعطى لكيانها معنى.

-مساء الخيرات ، أمسيتِ وأصبحتِ تستحوذين على جلِّ فكري ، أميرتي وسلطانتي ، كيف ستريننني والشيب غزاني.

- مشاعري لامسَت روحك وقلبك ، والجسد يبقى الهمّ الأخير.

-» فما حياتي أنا إن لم تكن فيها» هكذا تنشد نجاة

ماذا أقول له ، هل أعلمه دونه أنسى أنّي أنثى ؟ هل أخبره أنّي سأترك ورائي كلّ شيء ، وهو أمامي كلّ شيء ؟

هكذا تمتمت مع نفسها..

-أميرة هل توافقين الارتباط بي ؟

-كيف ؟

-نعقد الآن ، ترددين بعدي ما سأقوله ، وحين أنتهي تجيبين بالقبول !

نحن - معشر النساء- عندما نعشق نهبُ عواطفنا بسخاء ، نصبح ودودات أكثر ، نبتسم أكثر ، ونصير جميلات أكثر ، لكن إن شعرنا أننا نُعامل دون ما نهب وأقلّ مما نستحقّ ، عندما يصل الأمر أن نبقى خلف ستائر معتمة ، مكاننا في الظلّ ، أو خلف سكون الخوف ، عندما تُمسّ كرامتنا وتُستغلّ عواطفنا ، حينها ننتفض كما تنتفض النمرة عندما يتقرب كائن ما إلى صغارها.

-لماذا لم تردّي ؟ هذا العقد صحيح.

-هل ستوفّر لي مسكنا ومصروفا ؟وتبقى جنبي أسابيع أو أشهر ؟ ونُقيم مأدبة غداء أو عشاء أعزم فيها صديقاتي ، وأخبر أهلي بالعراق ، أعتقد حتى إن كانوا بعيدين من الواجب إخبارهم!

-لماذا تضعين العراقيل ؟

-عراقيل ؟ إذاً كيف تقول: عقد صحيح ؟ هل هذه قيمتي عندك ؟ علاقة منقطعة حالي حال أيّ امرأة تعجبك تمارس معها نزواتك تحت غطاء تقنع نفسك أنه شرعي وصحيح!

كانت أوصالها ترتجف ، دموعها ، صوتها ، نبضات قلبها ،

لم يسعفها الوقت الذي غلفته بعطر الأقحوان لتزهر أحلامها كما تريد ، اصطبغت عروق قلبها بلون اليأس ، وسَكنتْ إلى نفسها.

عجباً ، واعجباً ، كم حمقى الأيام التي تجبرنا على الأسى والندم ، يا حلم الغد ما زلنا نحسّ المرّ في شفة الأمس ، وما زال في فمنا علقم وشوك ، تحاصرنا مدامع السنين ، وتجلدنا عراة ذكريات موحشة ، تسحقنا قبضة اليأس ، ويلفظنا المرض شبه أحياء.

هل أرضعتنا الأمّهات التيه والقهر ؟

ماذا أرضعتنا في زمن شحّ المشاعر ؟ هل ينمو في الرمل عشبنا الأخضر ؟ أعوام ونحن نحرث في الصخر!

لقاءٌ قابَ قوسينِ

آهٍ ، آهٍ على الأوطان التي يعشق أرضها الموت ،

ذاك الموت ألا يغفل عن العراق قليلاً ؟ ألم يهدأ ، ألم ترضِه نواح الأمّهات الثكالى طوال السنوات الماضية ، ألم تكفِه دموع الأطفال اليتامى ، تنهدات العاشقات الصغيرات ، أحزان الأرامل ، وجع الآباء..؟

آهٍ يا وجعك الذي يسكنني. لماذا لم نشيّد أوطاناً بداخلنا ؟ وطن فيه نخلة ونهر وأناس أنقياء ، أشخاص نستطيع التعايش معهم بلا زيف أو مصالح أو حروب ، وطن بلا حدود أو مدن أو عواصم.

صار الموت مرافقاً قسرياً لنا ، لا مسرات بلا دموع ، حتى وداع الموتى بات صعباً ، فالمسافات الطويلة والحدود اللعينة ، والنفوس المريضة الخائنة ، كُلّها تعيق الحضور.

كان لقاء أميرة بأمير أحلامها قاب قوسين أو أدنى ، لكن الواقع يغلبنا دائماً ، ربما لأنّ الواقع هو الحقيقة التي لانريد أن نراها ، الواقع يشبه سمكة ذهبية عندما تكون تحت الماء ، جميلة ، لامعة ، لكن حين نمسكها ونخرجها للسطح ، نشمُّ رائحة زفرة ، فننفر منها ، وننسى جمالها.

الأيام بل الحياة برمّتها تبدو مجدبة دون أحباب ، دون أنيس ، دون شريك.

يقولون: مَنْ جَنَّ بالحبّ فهو عاقلٌ ، ومن جنَّ بغيره فهو مجنون.

لا أدري مدى صدق هذه المقولة ، لكن لمستها عند أميرة...

في لحظات كثيرة كانت تشعر أنّها إنسانة في هذا العالم خُلقت لأجل العطاء فقط ، التضحية فقط ، أمّ معطاء ، حبيبة معطاء ، صديقة معطاء ، لكن العالم يخذلها دائماً.

حتى أحمد الذي حسسّها يوماً بأنّها لديه العالم بأسره ، وأمدّها بطاقةٍ جعلتها تحبّ الحياة وتحبّ عمرها هذا الذي تقاسمته السنون والناس على حدّ سواء ،خذلها..

وجاء المساء..

المساء الذي ركنتْ على نجماته آمال كثيرة ، برغم أنها كانت تقفُ كثيراً عند الأماسي ، تتذكّر جميع أخطائها الماضية ، فكانت تحيل حاضرها جحيماً ، ومستقبلها حطاماً ، كيف لا وآثار الماضي حاضرة أمامها ، لكن هذا المساء وقفتْ شامخة ، شامخة بإنسانيتها والحقيقة الجميلة التي انجلتْ بوساطتها كلّ غيوم القهر ، نعم .. الشموخ هو أن نتغلّب على أنفسنا الأمّارة بالسوء ، نتغلّب على أمور خاطئة كنّا على وشك الوقوع فيها.

سرّحتْ شعرها ، تعطّرتْ بقطراتٍ من دهن العود ، ثمّ اتّكأت على سريرها ، واسترخت ، شعرت أنها اليوم ممتلئة بكلّ شيء: الخوف والحبّ والقلق والشوق والضعف والقوة والأمل ، شعرت أنّ الكون كلّه يقبع داخلها ، بجميع أشيائه ، بكلّ أشخاصه.

لكنّ شيئاً واحداً يحيرها! جرأتها في الثأر لكرامتها ، شجاعتها أمام مشاعرها.

غفتْ.. غرقت في نعيم عشق سرمديّ... ذابت بأنفاس أحمد ، حتى انزلق اللؤلؤ فوق أديم الليل ، وهمسُ حبهما يجلجل أصداء شغاف قلبيهما.

شعرت أميرة بأنها عروس هانئة ، عروس لرجل دخل مسام روحها وجسدها ، شعرت بأنوثتها التي نسيتها لعقود.

تغفو على ضحكة ومشاعر دافئة ، وتصحو على ابتسامة وأمل يشرق بنبضهما ، قُبلة الصباح تحيتهما لبعض ، أيضاً تحية المساء ، كانت أميرة تشعر بفيضٍ من السعادة وكأنها هالةٌ كبيرة تحيط بهما.

في صباح اليوم التالي خرجا للتنزّه ، وكان برج إيفل وجهتهما الأولى ، عبرا الجسر الممتدّ على نهر السين الساحر ، المقاهي والمحلّات الممتدّة على جانبيه ، التمتّع بجمال باريس ، حيث لا تكاد تعبر شارعاً إلّا وفيه التماثيل والمنحوتات الأثرية وعبق الحضارة ، تحف معمارية مرصوصة بإتقان ، وسحر الجوّ الغائم الذي يومىء بمطر ينعش الروح.

سارا حتى وصلا البرج ، جمال في الفنّ والإبداع ، يمتدّ على حديقة كبيرة وجميلة مليئة بالأشجار ، ومصاطب الاستراحة.

ومثل أيّ عاشقين يزوران باريس ، لابد أن يحفرا اسميهما على جدار قاعدة البرج ، لتبقى شاهدة على براءة المشاعر قبل أن تلوثها منغّصات الزمن.

عادا باتجاه شارع الشانزليزيه ، شارع الأضواء الملونة الممتدّ من ساحة الكونكورد إلى موقع قوس النصر.

جلسا في أحد المقاهي المنتشرة على جانبي الشارع ، ليحتسيا فنجان قهوة.

كانت ابتسامتهما ترافقهما ، خاصة عندما تحدث بعض المواقف الطريفة والمضحكة ، سواء في الفندق أو عندما يخرجان للتنزّه ، كانت كلّ الأماكن فرحة بهما ، كلّ الطرقات سعيدة بخطواتهما ، كلّ الوجوه تبارك علاقتهما ، أو هكذا يشعران.

أما قُبلة المصعد فتلك كانت بحدّ ذاتها حكاية ، فلم يصادف أن نسياها أو غفلا عنها ، حين ينزلان من غرفتهما أو يصعدان إليها ، أو في أيّ مكان يزورانه ، ويكون فيه «مصعد كهربائي» لابدّ أن يتبادلا تلك القُبلة السريعة ، الضاحكة ، الحلوة بكلّ معانيها.

تعانق الأنامل في الباص السياحيّ ، كانت لها حكاية أخرى وكأنهما ينفصلان عن جسديهما ، عيونهما تتابع الأماكن السياحية الجميلة والشوارع والأبنية التراثية ، بينما أناملهما متعانقة ، تتكلّم وتضحك وتبكي ، وحين تشعر بالخوف من المجهول تمسك ببعضها بقوة ، وكأنّها تتحدّى ذلك المجهول وتقول: لا نريد سوى بعض من الوقت ، لنكون قريبين من بعضنا أكثر.

جَرتِ الأيام سريعاً ، وكأنّها كانت تسابق أحمد وأميرة على الانتهاء ، ومع كلّ يوم ينقضي كانت أميرة تشعر بحزنٍ يعصرها ، وجع يسلبها فرح الآن والأوان ، حتى طفح هذا الحزن على كيانها في اليوم الأخير ، حيث كانا كعادتهما يجلسان قرب النافذة المطلّة على الشارع وأحد معالم المدينة ، يتجاذبان حديثاً حول أمورٍ عدّة ، وساقهما الحديث إلى بكاءٍ مرير وعناق مؤلم ، شعرتْ بحرقة وغصة بقلبها ، فاستيقظت على صوت منبّه الساعة وهو يُشير إلى الساعة السادسة والنصف صباحاً.. نعم كان حلماً.

نهاية العشق

«عمر واحد مش كفاية» غير كافٍ هذا العمر الذي ينحصر بأيام قليلة ، غير كافٍ الفرح الذي يقُيد بساعات معدودة.

الزمن الذي تحكمه سلطة السياسة والتقاليد والخوف يموت فيه الحبّ مهما كان قويّاً.

والإنسان الذي يضع نفسه داخل إطار ، لأجل إرضاء العُرف والمجتمع يكون قد قَتل بداخله أحلاماً كثيرة.

العشق يعني العناق حتى النهاية ، حنو ، تعلّق ، تضحية ، شجاعة ، نور ، ارتواء ، شريك حياة قريب ورفيق درب.

أغلقت أميرة صفحة كتاب علاقتها بأحمد ، لكن لم تغلق نافذة الذكريات الجميلة ، لا تريد أن تودّع الأماكن حتى وإن كانت حلماً ، ولا تريد أن تسدل أيّ ستار على ما صار بينهما.

قلبها موجوع لفراقه ، وجع يأكل من صحتها وتفكيرها ، لكن ماذا تفعل ؟ لا تستطيع أن تعود بالزمن إلى الوراء ، ولا تستطيع أن تمنع الشمس عن الغروب.

من يحب يفعل كلّ ما يستطيع من أجل لقاء المحبوب أو البقاء قربه ، ومن يحبّ لا يتقوقع داخل صَدفة الـ»لا» لأنها لا تبني مستقبلاً ، هكذا المنطق يقول.

فالمحبّة معادلة بسيطة جدّاً ، لماذا نعقّدها ؟ من يحبك يفعل المستحيل من أجل أن يكون قريباً ، التعلّق بالظروف واعتبارات أخرى ، أمور أو مبرّرات

لعدم التقرب وتحمل مسؤولية المحبوب ، هذه هي المعادلة: تحبني... كن معي ولي وقربي.

أعماق أميرة أيضاً تقول ، وهكذا عقلها يفكّر ، تريد لحلمها هذا أن يكون أمنية محققة في صحو ، لكنه لن يكون.

«أنا من غيرك يا أحمد لا قيمة لي ، أضيع ، لا أريد الدنيا بما فيها ، أريدك أنت فقط ، هل ما أريده صعب المنال ؟ «

لا أظنّه صعباًعندما يسعى المحبّ في أن يبني جسر التواصل الدائم ، ما الذي يحدث إن تزوج الرجل علناً زوجة أخرى؟ لماذا بعضهم يخفي زواجه الثاني ؟ هل إكراماً للزوجة الأولى ؟ طيب وهل الزوجة الأخرى لا إكرام لها ؟ ثمّ إن كان مبدؤه لا يتزوج أخرى ، لماذا يطلب زواج المتعة أو المسيار أوالجمعة أو السفر أو أو...؟ أليس هذا إقراراً منه بأنّ العلاقة المؤقّتة ليست زواجاً ؟

ولماذا توافق الأخرى أن تكون في الظلّ الظليل ، لماذا ترضى أن تكون خلف ستائر من حديد لا يمكن أن تُزاح في يومٍ ما ؟ لا أدري ، ولا أريد أن أدري!

نحن في زمن شحيح المسرّات ، زمن فيه متسع لتصحيح مفاهيم خاطئة تربّينا عليها ، لكنّنا نغض الطرف بحجّة العيب والمحال واللايجوز.

دوامُ الحالِ من المحالِ

ذات يوم سألته: ما الذي يميزها عن زوجته ؟

قال لها:

زوجتي الأولى لها مكانة خاصّة في قلبي وأمّ أولادي ، ورفيقة سنين طويلة ، وأنتِ تربّعتِ في قلبي ولم يزحزحكِ أحد قبل أن أجدكِ ، وحين وجدتكِ بدأتِ الحركة فيه وترك سكونه ، صعبة المقارنة بينكما ، لكلّ واحدة خصوصيتها.

نعم نحن النساء لكلّ واحدة خصوصيتها في قلب رجل أحبها ، لكن تبقى خصوصية المرأة الثانية والثالثة والمئة ، خلف تلال الصمت والمخاوف ، وتبقى محبّتها مندثرة ، وعليها أن تكون الصندوق الأمين لكلّ الآلام ، وأن تتحمّل وتمتصّ كلّ الهموم ، وأن تظهر في المجتمع بلا رجل ، وأن يعاملها الرجال على أنها وحيدة بلا حول أو قوة ، لأنها لا تستطيع أن تقول : أنا زوجة مؤقّتة ، امرأة متعة! فدستور الزواج المؤقّت والسريّ والمنقطع لايوجد فيه بند الجهر والإعلان!

ألم حارق يصيب روح الأنثى التي تعشق رجلاً متزوجاً ، هكذا كانت تقول أميرة.. يكفي أنّها تعرف أنه سينام الليلة بأحضان الأخرى.. هذا وحده « يرادله گلب ما مدشنّ»

كلّ شيء في غياب أحمد كانت تراه أميرة غريباً ، بعيداً ، وتشعر بصدرها تضيق فيه منافذ التنفس ، فلم يعد يوسعها دمعٌ أو نحيب.

صارت الرسائل بينهما شحيحة ، وبدأت مشاعر القلق هي التي تسيطر على

حياة أميرة ، رغم أنّ أحمد يؤكّد لها أنّ طيفها لن يفارقه ، لكن هيهات بين الطيف والواقع...

داهم المرض اللعين كليهما ، ربما تفطر قلباهما من البعاد والفراق والخوف ، أو هذا ما حدث لأميرة ، حيث لم تحتمل مشاعر الغيرة والفراق ، وخواطر جمّة تنخر بقلبها وفكرها ، فجثم المرض على جسدها.

بوح أحمد لأميرة أتعبها أكثر مما أفرحها ، ربما لأنه لم يضع حلولاً جذرية يؤطر بها علاقته معها ، وربما لأنه لا يمدّها ببصيص أمل لغد أجمل ، لكنه يزعم أنها امراة استثنائية جاءت في زمن قلّ فيه أمثالها.

أصاب المرض أميرة ، بدا التعب على ملامحها أوربما تعب السنين الجائرات الموحشات ظهر الآن ، لكنّها لم تتوان عن إرسال صباحاتها ومساءاتها إلى أحمد.

لم يتغير من مشاعرها سوى الخوف من موتٍ قريب دون أن تلتقي به ثانية:

-متى نلتقي ؟

-لا أدري ، لكنكِ حاضرة حتى في أحلامي ، اهتمي بصحتكِ ، حبّكِ لن يتكرّر ولن يستنسخ.

ربما أميرة استوعبت ما يقوله أحمد ، لكن الواقع مرير ، الواقع لا يسير برومانسية الكلمة فقط ، خاصة بالنسبة إلى امرأة وحيدة ومريضة ، هل يعلم الرجل مدى حاجتها ليدٍ حانية تمسك بيدها أو تطبطب على كتفها ؟ هل يعرف مدى حاجتها لوجوده قربها ساعات الليالي الموحشة التي تصبح أكثر وحشة عندما تصاب بعلةٍ ؟ هل يعرف مدى حاجتها حتى لو لشعاع ضعيف من أمل بغدٍ يشرق بلقاء ؟

أميرة وقعت في براثن المرض ، وبدأت رحلة المستشفيات والعلاج ، رحلة شقاء جديدة.

في أحد الأيام وكعادتها فاض الشوق بها ، بعثت له كلمة «حبيبي»

وانتظرت الردّ ، لكنّه لم يبعث إلا بعد وقت ، يطلب منها أن لاتبادر وترسل أيّ كلمة ألا بعد أن يبدأ هو ، لأنّ زوجته غالباً تكون قربه وتقرأ ، وبرّر طلبه لتحصين علاقتهما من أيّ شائبة!

تألّمت أميرة ، وكتبت له:

-لا تفكّر ، لن أكتب... المهمّ أنّ مشاعر زوجتك لا تُجرح أو تتضايق ، اطمئن حتى موتي ستعرفه من الغرباء.

شحّ المسرّاتِ

لا أحد يقاسمنا الكفن! كما لا أحد يقاسمنا المواجع والهموم على أرض الواقع ، فالمرأة الوحيدة ، المنكسرة ، عليها أن تنأى بنفسها عندما تريد أن تبكي ، وعندما تتألّم ، عليها أن تتقاسم وجعها مع ليلها وروحها ، وعليها أن تدبّر أمور معيشتها وحياتها ، وعليها أن تلتزم بالشرع والقانون حتى وإن سلبها أقلّ حقوقها ، وعليها أن تستسلم لليد العليا ، وعليها أن تعترف بالعرف حتى وإن سحقها ، وعليها أن تبقى في العتمة وهي الممتنة.

المرض وتبعاته همّ آخر لحق بأميرة ، همّ ماديّ ومعنويّ ، لكن ما حيلتها سوى الرضا بقدر الله ، فالمرض والولادة والموت وإن تعدّدت الأسباب جميعها أقدار ، وما سواها اختيار ، هكذا تنظر أميرة للأمور.

صارت صباحاتها حزينة وجديبة كما ليلها.

شعرت بغصّة وألم ، وأن ما تبقى من عالمها سيضيع إن فارقت أحمد — رغم إنانيته- ، حبّها كان أكبر من العالم الذي خذلها ، وأرفع من الاعتبارات الافتراضية التي وضعها أحمد لتحديد علاقته بها ، حبّها كان المعجزة والنبوءة التي نبتت في أرض قاحلة ، لكنها بدأت تتلّمس كثافة الدخان الذي يسود حياتها.

كتب لها ذات مساء:

-حبيبتي ، اعذريني ، مسحتُ جميع الرسائل التي بيننا ، حتى لا تتسرّب الشكوك إليها!

-لهذه الدرجة متحكّمة بك ؟

الأيام الجميلة شحيحة ، كما العمر أصبح شحيحاً بالعافية والوصال.

مرات عدة تتحدّث في أمرٍ ما وفجأة يقول لها براحتكِ ، أو أستأذن الآن ، أو سأذهب ، لتبقى هي في حيرة واستغراب ، بل تشعر أحياناً بضآلة قيمتها.

كانت تطلب منه ألّا يحرق قلبها وأنها بأمسّ الحاجة لكلمة منه ، وتقول له إنها « تموت عليه» ، وهو وحده في قلبها ، و تحاول أن تبيّن له أنّ حياتها الحقيقية معه هو فقط.

لا أدري ماذا أسمّي هذا العشق أو الوله أو التعلّق الجنونيّ ، لكن أميرة كانت تعيشه ، وتتنفسه ، رغم أنّ واقعها مرير وألمها كبير.

كانت تتألّم كما هو ، كلاهما غزا جسده المرض ، شحّت المسرات ، كما شح الفرح في سماء الوطن ، الرسائل وحدها لا تغني عن مسغبة العواطف ، لكنها تقرّب المسافات ربما ، كلاهما ظامىء للآخر.

شعرت أميرة بوحشة أكبر عندما احتاجت إلى أهلها للوقوف جنبها في محنة المرض التي تمرُّ بها ، فكسرت حاجز القطيعة ، واتّصلت بهم ، تستنجد بمن تبقى منهم ، لكنّها أيقنت أن ليس لديها في الوطن شيء سوى المسمّى ، بعد أن اعتذر الأهل والإخوة عن الحضور بحجج واهية ، بكت بحرقة ذلك اليوم.

في المنافي لا رفاق سوى الذكريات ، ولا أهل سوى الماضي ، ولا أحباب سوى الكتب ، في الاغتراب كلّ شيء يبدو مخيفاً ، كلّ شيء يدعونا إلى التوجّس ، حتى من زقزقة العصافير ، لأنّها تقف على غصن شجرة ليست ملكاً لنا ، التوجّس من أرذل العمر !

-إما أن نعيش معاً أو نموت معاً.

هكذا كان يكتب أحمد لأميرة ، كلماتهما كانت تطوي آلاف الكيلومترات.

ورغم ما يغدق عليها من كلمات حبّ ، كانت تشعر بغربة ووحدة وخوف وقلق ، مشاعر اعتادت عليها قبل أن تنام ، مشاعر تضعها على وسادتها قبل أن تضع رأسها.

ما حيلتها وأعباء الحياة تلاحقها! تحاول أن تنسى ثقلها عندما تتحدّث مع أحمد ، لكن سرعان ما تتقافز أمامها الهموم والأحزان فور انتهاء المحادثة.

حاولت جاهدة أن تنام تلك الليلة ، لكنّها لم تقدر ، قلق موجع بشأن حالها ، تعيش في حيرة من أمرٍ يؤرّقها ليل نهار ، ليس يقلقها فحسب ، بل يتعبها التفكير فيه ، سبق أن لمّحتْ به لأحمد متأملة أن يجد لها مخرجاً ، لكن لم يفعل ، بالرغم من أنّها متيقّنة أنه يفكّر بالحلّ ، لكن كلما مرَّ الوقت تعبت أكثر ، خاصة هذا اليوم بعد أن جاءت مكالمة من حاج جاسم.

السيّئونَ في حياتِنا نعمةٌ

حاج جاسم هذا رجل تاجر قريب للعائلة ، يساعد أميرة منذ سنوات في دفع إيجار البيت الذي تسكنه ردّاً لجميل قدمه والدها إليه ذات دهر ، لكن مع كلّ قسط يدفعه ، يدفع بعشرات الكلمات والتلميحات بطلب لقاء ، وغيرها من أمور ، لا شيء لوجه الله ، لا شيء لصلة قربى « أُعطي لأَحصل» هكذا ربما مبدأ هؤلاء الناس ، وعلى الأرامل والمطلّقات الرضوخ والانصياع لتسير الحياة ، أي سلطة ذكورية تحيد بـ»الأنا» خلف بؤرة الصمت ، أيّ سلطة تلك حين تفرض سطوتها على ضعف امرأة ؟

هذه المعاناة بالذات تقتل أميرة في اليوم الواحد مرات ومرات ، تجعلها تتوارى خلف مرآتها ، تعيش حالة الصراع مع نفسها والدين والقانون ، وتتساءل: أليس هؤلاء يمارسون نوعاً من أنواع الهيمنة والقمع ؟ لماذا تظلّ المرأة الوحيدة هامشاً يرغب في النور والوضوح ؟

هذه المكالمة بينها وبين « حاج جاسم « شبيهة مكالمات أخرى ، وهذا وضعها شبيه وضع آلاف النساء اللاتي يعشن تحت جُنح الأغطية اللا شرعية ، تحت وبال من بيدهم السلطة والمال:

- مرحباً أم خالد ، شلونكم ؟

- مرحباً ، بخير الله يسلمك حجّي ، تفضل.

- لا ، سلامتكِ ، أحببت أن أطمئن ، وأخبركِ أنني قادم إلى دبي ، إن كنتم بحاجة إلى شيء من بغداد.

- لا ، شكراً عساك دايم.

- أيضاً أحببت أن أعلمكِ بأنني أودّ أن أنزل في البيت ، وليس في الفندق ، وهذا أعتقد من حقّي بما أنّي أدفع إيجار البيت.

- ليس هناك مشكلة ، أخبرني متى ستصل حتى نخرج نحن نقضي الفترة التي تكون فيها أنت عند بيت صديقتي.

- يا بنت الحلال ، عقد مؤقّت وينتهي الموضوع.

- آسفة ، أنا لست سلعة رخيصة إلى هذا المستوى ، والبيت سأخرج منه نهائيّاً ، وأبحث عن مكانٍ يلائم وضعي.

- « خشم يابس» على أي شيء لا أعرف.

« السيئون في حياتنا نعمة فلولاهم لم نعرف الرائعين»

هكذا تقول الحكمة.

تمنّت أميرة ذلك اليوم لو تستطيع أن تزيح عن قلبها هذا الهمّ المؤلم ، بل تمنّت أكثر ، تمنّت لو ترجع بها السنون لتلعب على أرجوحتها الخشبية المعلّقة بين شجرتي السدر ، ولا تعي ما يدور حولها.

عندما أخبرت أحمد بهذه المحادثة ، اشتاط غيظاً ، وطلب منها أن تخرج هذا الرجل من حياتها ، وسيفكّر ماذا يفعل ، لكنه أغاظها عندما لم يصدّق أنّ قريبها يساعدها دون مقابل!

-لا تسئ الظنّ والتفكير أحمد.

-أنا غير مقتنع ، هل دخل البيت من قبل ؟

أميرة حين يحترق قلبها وتُقهر ، يجافيها النوم.

حين نتذكّر أو نحاول أن نسترجع لحظات باتت مجرد»ذكرى» أو أيام محال أن تعود ، وحين نتأمّل أن يقف الزمن برهة ، فقط لنعيش حالة حال.. وحين نضع حياتنا بكلّ ما فيها من آمال وطموح وماض وحاضر ومستقبل في إطار المعقول واللامعقول ، نكون خلقنا أو بالتعبير الدقيق وصلنا إلى درجة من الإدراك بأنّ نقاط الزمن الثلاث- الماضي — الحاضر — المستقبل — ما هي إلّا إرادة تتكوّن بفعل ما يريد المجتمع وما لا يريد.. وليس بما نحن نريد أو ما لا نريد.

هكذا نترك الأيام هي التي تتحكّم بمصائرنا وربما بمصائر شعوب وأمم وحياة كاملة.

أميرة لم تنم تلك الليلة ، بعثت لأحمد كلمات توحي برغبتها في الموت ، واليأس من الحياة :

- كم أنا بحاجةٍ إلى موتٍ قريب ، أو فقدِ ذاكرة لأنسى وجعي وأغيب.

هكذا صارت فجوة أخرى في علاقة أميرة وأحمد.

في أحيان كثيرة نحاول البحث عن الأحلام التي خذلتنا أكثر من مرّة ، ونقف على أطلال سَكنتها خفافيش القهر والضيم ، نحاول دون جدوى ، خاصّة إن مررنا في حالة انكسار ولم نجد مَنْ يسندنا ، وفي أحيان أخرى نجعل من حالات خيباتنا وانكساراتنا بدايات لأحلام وآمال جديدة ، ولم نلتفت إلى أمسٍ مؤلم ، نبحث عن تغريدة عصفور ، أو عن بريق ضوء يختبىء خلف صباحات نجهلها.

أميرة كانت ممن يبحثون عن ذلك البريق الذي لمعَ في قلبها ، عن تلك الجذوة التي اشتعلت نوراً في فجر أيامها ، فالماضي لم يعنِ لها سوى نكد خسائر ، والماضي لم يعنِ لها سوى حروب دامية ، الماضي لم يعنِ لها سوى

حقبة عاشتها دون إرادتها ، الماضي بكل همومه وانفعالاته وحتى مسراته — إن كانت هناك مسرّات — لم يواز لحظة حبّ عاشتها مع أحمد ، ولم يساو كلمة همستها له.

أحياناً كثيرة نُجبر على التعامل مع ناس لاتربطنا بهم عاطفة ، بل رابطة دم أوقرابة أو حق جيرة وعشرة ، وأحياناً أكثر مصلحة ، روابط نكتشف لاحقاً أنّها استنزفت منّا الكثير.

في المنافي ندركُ معنى البكاءِ

هل ينتصر الحبّ على مخاتلات الدهر ؟

في المنافي نبكي بهدوء ، نفرح بهدوء ، ننكسر بهدوء.

نموت بهدوء ، الغياب حاضر ، الحبّ حاضر ، لكن الإنسانية وحدها محاصرة ، وحدها مقيّدة ، والمسافات مفتوحة طويلة ، الحدود مغلقة ، والمنافذ قابلة لتأويل كهنة التعسف.

في المنافي ندرك معنى البكاء ، عندما نحبّ شخصاً ولا نستطيع الوصول إليه ، وندرك معنى الابتسامة عندما نسمع صوت الأهل والأحباب عبر أسلاك جامدة ، لكنّها تنبض بهم ، وندرك معنى الاحتياج ليدٍ حانية تأخذ بأيدينا وقت العوز ، وندرك أنّ الآصرة نوع آخر من أنواع الحرية ، وندرك معنى الرغبة في الحياة ، ومعنى كلمة» وطن» ، وندرك معنى أن نكون لا شيء في رفّ أفكار من تركناهم خلف الحدود!

أنا لا أختلف عن أميرة وفاطمة وميم وعين وصاد والكثيرات ، أنا أيضاً لديّ أحلامي ، أمنياتي ، رغباتي.

سعادتي بقعة أرض تأويني بلا منغصات ، بقعة أرض بعشرة أمتار من كرامة واستقلالية!

الأهداف النبيلة وحدها تحدّد ما علينا القيام به ، وما يجب أن نضحّي به ومن أجل مَنْ ، والرجل النقيّ الذي يكون فكره صافياً وقلبه طاهراً ، هو من يستحقّ قلب امرأة استمدّت قوتها من حكمة أبيها وصحوة ضميرها.

الأهداف النبيلة تقودنا إلى البحث عن حياة حقيقية ، عن حاضر ومستقبل ، فكيف إن كان أحد أهدافنا النبيلة إنساناً ؟ رجل تعشقه امرأة إلى حدّ الجنون..أو امرأة يعشقها رجل إلى حدّ التماهي ؟

حبّ متلهف ، حبّ نهم ، حبّ لا ينضب.. مع كلّ صباح ينمو برعم جديد ، ومع كلّ مساء يزهر ذلك البرعم ليكون زهرة خزامى.

هناك حكمة تقول إنّ روح المرأة صُنعت من ثلاثة عناصر: الحبّ والحنان والرقّة ، لهذا هي قادرة على أن تحبّ وتشفي وتواسي ، وتلك هي غايتها على الأرض.

أنا أيضاً عشقت ، أحببت شاباً وسيماً ، مثقّفاً ، كنت ما أزال على مقاعد الدراسة ، كانت أخته تدرس معي في ذات المدرسة ، وكانت هي ساعي البريد بيننا.

كُلّ صباح تأتيني محمّلة برسالة داخل كتاب ، وغالباً ما يكون الكتاب قصة أو رواية أو ديوان شعر.

رسائله كانت جميلة جدّاً ، معطّرة ، مذيّلة برسمة جميلة وتوقيع أجمل: المحبّ أبداً سامي.. أو: حبيبك للأبد سامي.

سامي سكنَ قرارة روحي ، ملأ عالمي نوراً وأملاً ، بدّدَ العزلة التي أدخلتها إلى خبيئة نفسي مرغمةً.

بعد أن أنهيت مرحلة الثانوية تقدّم لخطبتي.

عصر يوم صيفي زارتنا والدته ، أذكر جيداً كانت والدتي مستاءة من زيارتها ، فلم يتّسع صدر والدتي لأحاديثها ، أعتقد أمّ سامي شعرت بهذا الأمر ، لهذا دخلت في موضوع الخطبة مباشرة.

والدتي كانت مهيّأة الردّ مسبقاً:

-شلون تقبلين جاية تخطبين شامة لابنچ ؟

-ليش خيّة ،چا اشبيه ابني ؟

-لا خيّة لا ، لا أنتم من ثوبنة ، ولا أحنة من ثوبكم ؟

أنا كنت أستمع ، أجلس قبالة أمّ سامي ، شعرت بالتحدّي في نبرة والدتي.

مسكينة أمّ سامي ، صارت تبلع ريقها أكثر من مرّة ، شاهدتُ كيف تيبّست شفتاها ، ودمعة مقهورة تترقرق في عينيها ، لكنها لم تنزل.

بعد خروج أمّ سامي من بيتنا ، طلبتْ منّي والدتي أن أذهب إلى غرفتي ، وأغلق الباب.

لن أخرج حتى أسمعها تناديني ، فنفذّت ما طلبتْ ، جلستُ على سريري ، وبدأت ببكاء مرير ،لم أتخيل فراقنا ، أو أنّ أحلامي تنتهي بقرار من والدتي ، سعادتي تلك تقتلها ما يسمى بالفوارق المجتمعية.

رسمتُ أكثر من سيناريو خلال دقائق قليلة: سيأتي والدي وتخبره والدتي وربما يضربني ، أو يمنعني من الطلعة ، أو ربما لن يتركني أكمل دراستي.. طيب لماذا لم أتفاءل ؟ ربما يحدث العكس: سيأتي والدي وتخبره والدتي ، سيحاسبها لأنها رفضت دون أن تستشيره ، نعم هم فقراء ، لكنّهم من عائلة محترمة ، سيطلب منها أن تعتذر لهم ، وتتمّ الخطبة.. معقول!

بكيتُ كثيراً تلك الليلة ، وانتظرت نداء والدتي ، لكنّها لم تفعل ، حتى نمتُ ..

توقّعت أنهما سيفتحان معي الموضوع في الصباح ، لكنهما لم يفعلا ، وكأن لم يحدث شيء.

كانت العطلة الصيفية قد بدأت ، وليس هناك من هاتف في بيت سامي ، لأتواصل معه وأعرف أخباره.

فكرتُ في حيلة بائسة عسى ولعل أضغط بها على أهلي ليوافقوا على سامي.

دخلتُ المطبخ ، وفتحت الثلاجة ، أمسكتُ زجاجة صغيرة لونها بُنيّ مليئة بحبوبٍ صفراء ، لم أعرف حقيقة هي دواء مَنْ!

ختلتُ في غرفتي ، وابتلعت كُلّ مافي الزجاجة..

ما هذا القرار البائس ، كيف تأتينا هذه القوة القاسية التي تجعلنا خارج إرادة الوعي ، كيف نفكر بالموت وننسى الحياة ، الحساب ، العقاب ، نتائج القرارات السلبية ؟

نجوتُ من حالة الانتحار البلهاء هذه بغسيلٍ للمعدة وبقاء ثلاثة أيام بالمستشفى .

ما حدث زاد أهلي عناداً ، وموضوع سامي حُسم بالنسبة لهم.

انقطعت أخباره تماماً لمدة شهر ، قرّرت أن أزورهم في بيتهم ، سامي بالنسبة لي كان الرغبة في الحياة ، بل الحياة بكلّ معانيها.

افتعلتُ عذراً ، وخرجتُ من البيت ، كنتُ أسرع بخطواتي لأصل ، دقات قلبي تكاد تتوقّف ، كنت متلهفة لرؤيته ، ومتوجّسة ربما لم أجده.

عندما وصلت وطرقت الباب ، فتحت الباب أخته نادية ، تفاجأت بي ، وتلعثمت بترحيبها ، سألتها أن كان سامي موجوداً ، قالت نعم موجود ، تفضلي.

دخلتُ ، جلستُ على أريكة في باحة البيت ، أقبلتْ عليّ فتاة جميلة بكأس عصير ، قالت نادية :

-» هذي بنت خالتي.. مرتْ سامي»

لم أتمالك نفسي ، بكيت بحرقة ، جسدي يرتجف ، كيف حدث هذا ، متى ؟ معقولة بهذه السرعة ؟

كسرَ قلبي ، وروحي ، وأملي.

جثا أمامي ، وأمسك بيدي ، قبّلها ، ومسح دموعي ، قال:

-أنتِ حبيبتي ، وهي تعرف هذا ، وزواجي منها ردّ اعتبار لوالدتي التي أهانتها والدتكِ ، هل فهمت ؟

رجعتُ لبيتنا منكسرة.. وانقطعت أخبار سامي منذ ذلك الحين ، ولمدة سبعة وعشرين عاماً.

تزوجت خلالها أحد أقاربي ، لكنه استشهد في حربنا مع إيران ، ثماني سنوات حرب كفيلة أن تسرق من كلّ بيت عراقي شهيداً أو أسيراً أو مفقوداً.

بعد مرور عام كامل على استشهاده ، تقدّم أخوه للزواج منّي ، كنتُ لا أستسيغ فكرة الزواج ثانية أصلاً ، فكيف بالزواج من أخِ زوجي ؟

عُرف سائد تلك الفترة» مرت الشهيد لأخوه» تقاليد تشبه الموت ، عادات فجّة ، كريهة ، لا تمنح الشهيد قدسية الفقد ، ولا زوجته قدسية التذكّر.

كنتُ مستاءة من الدنيا ، غاضبة عليها ومنها ، لم تهبني ما يكفي من السعادة ، لم تهبني زوّادة فرح ، لم تهبني سوى الخسارة ، خسارة حبيبي ، خسارة زوجي ، خسارة وطن ، خسارة كرامة ، خسارة استقلالية ، الخسائر لا تعدّ.

حرب الثماني سنوات مع إيران سلبتنا الأمان ، والكثير من الشهداء والأسرى والمفقودين ، والكثير من الموشومين على أنهم « افراري الجيش» !

أذكر آخر رسالة بعثها زوجي قبل استشهاده مع أحد المقاتلين النازلين للمدينة ، قال فيها:

أنتِ مثل يدي المبتورة التي تركتها مرغمًا في أرض الحرام ، هل تظنّين أني سأنسى جزءاً منّي فقدته ذات حرب؟ لكني اعتدت على الحياة بيدٍ واحدة ، وأنتِ أيضاً ، إن استشهدتُ فلابد أن تعتادي على المشي بساقٍ واحدة.

طالما كنتِ تقولين: إنّكَ ساقي التي تقودني لبساتين الضوء.

إذاً كيف يريدون أن يستبدلوا ساقاً بساق ؟

نغمضُ أعيننا رغمَ معرفتِنا بالحقيقةِ

المحن التي يمرّ بها البشر كثيرة ، وتزداد كلما تقدّم بنا العمر ، قد تتفاوت عظمة المحنة بين شخص وآخر ، لكنّها في النهاية تصبّ في مجرى الحزن.

المحن ليست بحاجة إلى معجزات ، وليست بحاجة إلى كرامات من أولياء طلقّوا الدنيا ، المحن بحاجة إلى صبر ، وقلب يسع الكون بكلّ ما فيه ، وأمل كبير بأنّ الفجر آتٍ لا محالة.

مخلفات الحرب وهضيمة الحصار الاقتصادي على العراق آنذاك وخساراتي المتلاحقة ، تركت في نفسي ندوباً عميقة ، وأمام نظرة المجتمع لزوجة الشهيد ، وبين ضغط الأهل للزواج من أخيه ، كان لابدّ من تقرير مصير.

فكان الهروب إلى ضفة رخوة.

حالي مثل حال فاطمة وأميرة ومئات النساء اللاتي قررن الانفلات من عجلة مدن الحروب ، الخروج عن مسار درب القيم البالية والمعتقدات البائسة والسلطة الذكورية المهينة للقارورة التي خلقها الله لمؤانسة الرجل.

كانت وجهتي سوريا ، ومن هناك سافرت إلى دبي.

لم أكن أخطّط للبقاء في دولة الإمارات ، بل كان طموحي ورغبتي أن أجعلها محطّة عبور ، حتى أرتّب أموري للهجرة الأخيرة.

لكن دبي مدينة فاتنة ، مدينة لاتعرف أن تنام دون أن ترسم بناء عمارة أو شارع أو مركز تسوق ، لنصحو صباحاً على وجود معلم جديد ، مدينة تشعرك بالترف والرفاهية ، تشعرك بأنّك مسؤول عن نفسك ومستقبلك.

كلّ شيء فيها متاح ، ثقافات مختلفة ومتنوعة ومنسجمة ومتسامحة ، جنسيات لم أكن أحلم أن ألتقي بها ، مدينة مبهرة.

لأول مرّة أشعر بجمال لهجتي العراقية هنا ، لهجتنا كانت ساحرة بالنسبة للخليج ، يعشقونها كما يحترموننا ، لأول مرّة أكتشف أنّ اللهجة هويّة أخرى..

تآلفت مع المجتمع الخليجيّ كثيراً ، وكوّنت صداقات جميلة ، خاصة بعد أن وجدتُ عملاً مناسباً استطعت من خلاله توفير عيش كريم ، وإن كان شحيحاً بعض الشيء.

كنتُ افتقد شيئاً ما..المطر في هذا البلد قليل جدّاً ، فأغلب شهور السنة حارة ورطبة ، لهذا كان الحنين يغشاني ، الحنين لرائحة المطر وهو يبلّل أشجار حديقة بيتنا ، الحنين لطعم لقمة خبزٍ خارجة توّاً من تنّورٍ يتوسط باحة الدار ، والحنين إلى لمّة والديّ وأخوتي حول « صينية الغدا « الحنين إلى رنّة الملاعق الصغيرة وهي « تخوط» استكانات شاي العصر مع « الكعك أبو السمسم» أو «الكليچة».

باختصار الحنين كان يطبق على روحي.

مرّت سنوات برتابة ، قلق ، توتر ، لم يتغير شيء جذري بحياتي ، كنتُ أسافر بين فترة وأخرى إلى البصرة لزيارة أهلي ، وفي كلّ زيارة أتلقى اللوم وسماع أسطوانة الغربة كربة ، والزواج -أحسن من الوحدة والبهذلة- ، وفي كلّ مرة أقول لن أسافر مرة أخرى ، لكن الحنين يقودني بل يأمرني وأنا أطيع.

في عام ٢٠١٥ ، وهو العام الذي شهد أزمة المهاجرين إلى الاتحاد الأوربي ، حيث تدفق أكثر من عشرين ألف مهاجر إلى المانيا ، وانتشار صورة جثّة الطفل

آلان على أحد الشواطىء التركية ، مما جعل برلين تخفّف القيود على اللاجئين ، وهذا تسبّب بأسوأ أزمة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث تدفّق ما يقارب نصف مليون مهاجر.

فكرتُ بالهجرة بشكلٍ جادّ ، كنت أهيّئ الأمر برأسي ، ذاك اليوم كنتُ أتابع وقائع الحج على التلفاز ، وكنت بحالة انهيار وبكاء بسبب منظر تدافع الحجيج في منى قرب مكة المكرمة ، ليقع مايقارب ٢٢٣٦ قتيلاً ، وكان هذا أسوأ كارثة في تاريخ الحج.

رنّ هاتفي ، رقم غير معروفاً ، كان من العراق ، فلم أردّ ، عادة لا أردّ على الأرقام غير المخزنة ، لكنه تكرّر أكثر من مرّة ، قلت ربما من أهلي أو أقاربي ، ففتحتُ الخط ، وكانت الصدمة:

-شامة ؟

-نعم ، مَنْ معي ؟

-أنا سامي..

كان صوته مختنقاً ، كان يبكي..

تستوقفنا أحياناً بعض الذكريات العالقة بأماكن زرناها مع أحباب ، تستوقفنا نفحة عطر شممناها معاً ذات مساء ، نسمة برد داعبت وجوهنا ذات فجر ، شهقة فرح دغدغت أرواحنا ذات لقاء ، دمعة قهر ذرفناها ذات قهر ، أشياء كثيرة لن ننساها بسهولة ، رغم أنّها غادرتنا بكلّ سهولة ، مواقف عديدة تجعلنا ندرك أنّ الحياة مجرّد ومضة.

الرجل الأول في حياة المرأة أشبه بوشم على جهة القلب ، مهما كان ذاك الرجل ، وشماً غير قابل للمسح أو الإزالة.

قد ننساه حيناً من الدهر ، لكن سيطفو على سطح التذكر حين نختلي بذاكرتنا ، ونذود بها عن مشاغل الحياة اليومية.

بعد سبعة وعشرين عاماً من الفراق يظهر سامي في حياتي من جديد!

إنها مفارقة غريبة ، ظهور موجع في غير وقته ، ظهور شتتَ تفكيري ، وبعثر خططي .

نسيتُ الكوارث التي أصابتني في غيابه وبسببه ، نسيتُ وجه ابنة خالته التي تزوجها ثأراً لوالدته كما قال ، نسيتُ انقطاعه ونسيانه لي ، حبّي له كان أكبر من عتاب ، اتصاله غفر فراقه وأخطاءه

العــودةُ

«ما الذي يحتاجه الإنسان أكثر من قدميه حتى يتعثّر ويسقط؟» هكذا يقول هاينريش.

ربما يحتاج أن يحمل معه عثرته أينما رحل ، ربما يحتاج أن يغمض عينيه ، وربما يحتاج أن يرقد في الحلم ،ربما يحتاج إلى فكرة متسلّطة تغير قانون دولة ومجتمع وأسرة وذات.

عادَ مجرى الحبّ بيننا ، لكن بجمرة عشق هافتة ، لهفة متوجّسة.

اتّفقنا أن ننسى لوعة مافات بكلّ تفاصيله ، ونبدأ لحياة قادمة أسعد ، أن نجتمع تحت سقفٍ واحد ، لكن المشكلة أين؟ في أيّ بلد؟ هل أرجع للعراق ، أم يأتي هو للإمارات؟

وبسبب الفيزة وضآلة الأمل بالحصول على عمل هنا في الإمارات ، وغلاء المعيشة ، اقتنعت أن يرتّب الأمور للزواج والعيش في البصرة ، لكن بشرط أن يوفّر لي مسكن ملك ، وأن يكون أغلب أيام الأسبوع عندي.

-مسكن مُلك لا أقدر ، فما زلت أدفع فلوس المسكن الذي نسكنُ فيه أنا وعائلتي.

-« انزين مو تگول مساحته چبيرة؟ « أقسمه نصفين ، لابدّ من ضمان لي.

-ما «اگدر» أنا سأرتّب شقة إيجار ، وعندي صديق صائغ سأشتري لكِ كم قطعة ذهب بالدين ، حتى الأثاث عندي ولد صديق يعطيني بالتقسيط!

حقيقة صُدمت ، وبدأت الوساوس تأكل رأسي ، حتى صرتُ أشكّك بسبب عودته لي ، هل فعلاً لأنه يحبّني ؟

يأتيني جواب قلبي: لوكان يحبّكِ لبحث عنكِ طيلة هذه السنوات ، لو كان يحبّكِ لما « خلّف» خمسة أبناء ، لو كان يحبّكِ لنفّذ شرطكِ ، لو.. لو.. لو..

صوتهُ لم يعد يرنّ في أُذني ، وملامحه لم تعد تلك التي أحببتها ، شعرتُ أنّي لن أكون سعيدة فيما لو تركت عملي هنا وإقامتي ، وذهبت على الوضع الذي رسمهُ.

لا أظنّ أنّنا سنجتمع ، هذا ما توصّلت إليه ، واتصلت به لأخبره ، فلم يردّ ، ربما زوجته جنبه!.

جعلت من ظنّي هذا حجّة لأنهي العلاقة رسميّاً ، فكتبت له رسالة وبعثتها ... وإلى اليوم لم يردّ عليها.

إنّ بهجة إرضاء غريزة لدى امرأة توازي بهجة ولادة طفل جديد في عالم أشرفَ على الهرم.. ما دمنا نعيش في هذه الحياة ، ونطلب أن نعيش براحة بال وغبطة ، فعلينا أن ندرك أنّ لكلّ منهما ثمناً علينا دفعه بطريقة أو بأخرى ، حتى وإن كان الثمن ما تبقى من سنوات.

أنا كنتُ صاحبة عقل فطن (هذا ما يقال عنّي) ، أمتلك حاسّة بمثابة رؤية لما سيحدث حولي ، لكن احتمالات البؤس التي رسمتها ظروف سامي في طريق علاقتنا جعلتني أرتاب من تلك الحاسّة ، وأشكك في أمرها ، فما بين صدأ الحزن الذي يغشى نفسي ، ونقاء حدسي الذي يصقل أفق قلبي ، أرى عليّ أن أساير الواقع الذي أعيشه ، أن أخلق سكينة وهدوءاً داخليّاً في روحي ، وأن أستمع

لنداء قلبي وحدسي الذي يقول: إني سأجتاز زمن القحط هذا ، مسافات الألم ، سأتسلّق أغصان فضة الفجر ، لأصل الغيمة الكريمة التي ستروي حقلي نوراً ونواراً.

عندما نريد أن نحتفظ بلون الحياة الزاهر ، علينا أن ننسى تفاصيل مريرة كثيرة عشناها ، وعلينا أن نراقب حياتنا الخاصّة باستمرار حتى نتجنّب كلّ الآلام.

محو الماضي أمرٌ ممكن ، فهو لم يعد قضية كبرى ، كلّ ما نحتاجه النسيان ، لكن هل نستطيع أن نتجنّب المستقبل المبهم ؟

هذا الذي يؤرّقنا..

الشّمسُ لا يغطّيها الغربالُ

«لكي نكون سعداء إلى حدّ معين ، ينبغي لنا أن نكون قد تألّمنا إلى ذلك الحدّ نفسه» هكذا يقول إدغار آلن.

كانت أميرة تتألّم إلى حدّ لا توازيه أيّ سعادة.. تبكي بحرقة ، بقهر ، تشعر بصغر قيمتها في هذا الكون كلما تذكّرت موقف أحمد من علاقتهما.

كان يوهمها بأنّها أخذت مساحة كبيرة من وقته ، رغم أنه لم يمنحها إلّا بضع دقائق ، لكن عندما تطلب منه أن يعيد ترتيب علاقته معها ، يتحجج بوضعه الاجتماعيّ والعائليّ ، وأنه لايريد أن يلتزم بوعد ..

هل هناك أشياء أثمن من الحياة ؟

أشياء حين نفقدها نفقد الحياة!

أشياء نخسرها ، لكنّنا لن نبقى أدنى من أنفسنا.. وتأجيل بعضها بحدّ ذاته خسارة ، الاستسلام للموت هو خسارة ، الإيمان المطلق بالمعجزات أيضاً خسارة ، المعجزة الوحيدة في هذا الزمن هي « الذات».

هكذا ترى أميرة إلى ما يحدث حولها ، أحياناً نحتاج إلى أجنحة ليست مثل أجنحة سنونو مهاجر ، أو يمام حائر ، نكون بحاجة إلى أجنحة من فولاذ تساعدنا لنطير بلا توقّف ، فقط لنشعر أنّ الفضاء رحب.

كانت تنتهي المحادثات بين أحمد وأميرة عندما تصل إلى تقرير مصير..

أحياناً كانت تصمت ، فلا مترجم أكثر تعبيراً وبلاغة عمّا بداخلها من

الصمت ، تعلمتْ أنّ منَ يريد أن يوقد شعلة في طريق مظلم تكفيه عود قشّ صغير لإشعالها.

أميرة كانت بعد كلّ محادثة حزينة ، أو ضيق تشعر به ، تدخل إلى نفسها ، وتبقى فيها وحدها مع الله ، بعيدة عن ضجيج البشرية والحياة والواقع والأحلام والماضي والمستقبل ، تستمع لأنين روحها ، لنبض قلبها ، حتى يداهمها النعاس ، ويُقبل عليها والداها من زمنٍ آخر ، يُقبلان بهيبتهما ، ومحبتهما وابتسامتهما ودمعهما.

في حضرتهما تشعر بالتحرّر من الخوف والعقل والعتمة والمستقبل والقلق وحتى التحرّر من الموت ذاته ، كانا الملاذ الآمن المؤقت لعذاباتها.

عندما نفقد والدينا ، نشعر بأرواحنا تفلت من حاضر الأزمان..

بقدر ما نحبّ يزداد ألمنا ، وبقدر ما نكون في حيرة بين الرغبة والتملك نكون غير قادرين على التمييز بين التفتح والذبول.

إحدى الليالي بعثت لي رسالة ، مفادها أنّ الفجوة اتّسعت بينهما ، وقرّرت أن تنهي العلاقة ، إن تنهيها هي أهون من أن يبادر هو.

قلتُ لها : أنتِ بالنسبة له مزاج ، مزاج فقط.

كنتُ أعي تماماً ما أقوله ، لايوجد رجل في العالم أحسن من الأنبياء ، والأنبياء لم يكسروا قلب امرأة قط ، فمن يكون أحمد وغيره ؟

إحدى المرات بعد محادثة تعيسة مع أحمد ، سقطت مغشياً عليها لولا عناية الله ومساعدة جارتها لحدث أمر غير محمود ، رقدت في المستشفى حتى اليوم التالي ، لا رفيق سوى السرير المغطّى بشرشف أبيض ، لا مؤنس سوى قطرات

المغذي التي تسير في عروق يدها ، وشفقة إحدى الممرضات الآسيويات التي تحضنها ، وتمسّد على شعرها:

-«مدام.. أنتِ تريدين أسوّي اتّصال حق زوج مال أنتِ؟ أخو مال أنتِ ، أهل مال أنتِ»؟

يا الله ... أميرة تبكي بحرقة ، لا يوجد زوج ولا أخ ولا أهل هنا ، هكذا المرأة الوحيدة عندما تعيش مغتربة ، عليها أن تتحمل أعباء وحدتها وغربتها ، عليها أن تكون الأنا والآخر والأمّ والأب والطبيب والمعلّم والقاضي والجلاد ، والعاملة حتى تنفق على نفسها ، وتتجنّب سؤال الآخرين ، هكذا أميرة.

ما إن عرفت بحالتها حتى أسرعت إلى زيارتها.

في اليوم التالي عدنا إلى بيتها ، استلقت على سريرها الموحش ، أخذت تلفونها ، وبقلبها أمنية أن تجد رسالة من أحمد ، فتحت الهاتف لتجد أكثر من رسالة ، واتصالات متعدّدة منه ومن الصديقات الأخريات ، ورغم أنّ قواها منهكة إلّا أنّها بعثت رسائل اطمئنان للجميع.

-ماذا عملتِ بي؟ كدتُ أجنّ لأنّ هاتفكِ مغلق ، لم أكن أعرف مقدار حبّكِ بشكلٍ دقيق ، الآن عرفته ، وعرفت ما يعني غيابكِ عن حياتي.

هكذا كتبَ لها.

مرارةُ العتابِ

كم يبدو الإنسان ضعيفاً حين يداهمه المرض ، خاصّة إن كان وحيداً ، فكيف إن كانت امرأة ؟

امرأة كلّ ذنبها أنّها تنثر بذور طيبتها في كلّ بقعة ، لكنها غير قادرة على تخصيب أفكارها ، عاشت حياتها في سبات وأرادت أن تحلم بالحياة نفسها ، امرأة كلّ ما تملكه كان مرآة لذكريات مؤلمة وحارقة ، مرآة مرعبة تتنفّس معها ، وتسبب في عذاباتها ، امرأة صريحة لاتعرف كيف تقترف الأكاذيب التي تجعلها تعيش في منأى عن العوز والحزن ، امرأة خطيئتها أنّها تلبّي نداء قلبها الذي لم يسعفها حين تباطأت ضرباته.

أميرة كانت متفرّدة في كلّ شيء ، حدسها وحده يقودها إلى الأشياء كُلّها ، طالما عايشت وشاهدت مآسي وأناساً ، لكنّها لم تعرف كيف تتعايش مع بنات أفكارها ، ولم تتقبّل أن تُصبّ في قالب يرضي المجتمع ولا يرضيها ، لا شيء يرغمها على أن تفطر قلبها البرونز ، فما حدث لها جعلها تُعيد حساباتها في كلّ شيء..

الحبّ وحده لن يقود إلى مدن الفضيلة ، والحبّ وحده لن يأخذ بيدنا نحو عيش كريم ، والحبّ وحده لن يقف بوجه عواصف الحرمان والقهر ، الحبّ وحده بدون المحبوب لن يفعل أيّ شيء.

بعد الانتكاسة الصحية لأميرة ، شعرت بمدى افتقارها لأشياء كثيرة ، وعوالم

أخرى ، فبعد سنوات من التضحية من أجل أبنائها هاهي ترقد على فراش المرض وحيدة ، وبعد أن وجدت حبيبها وأحَبته بكلّ جوارحها ، أيضاً تعاني وحدها ، ربما أحمد يعاني لمعاناتها ، لكنّها في زمن الواقع الملموس —وحدها —في زمن الحقائق نتكسّر ونبدو كأننا من زجاج ، وعلينا أن نتأمّل نهايات جميع أمورنا.

مرض أميرة والغياب كان عسيراً على كليهما رغم أنه لم يتجاوز أربعاً وعشرين ساعة ، لكن كلّ منهما شعر بثقل الوقت ، أحمد يرافقه القلق والتوتّر لأنّه لم يعرف ماذا حدث لأميرة ، وأين هي ولماذا هاتفها مغلق ، وأميرة يرافقها الوجع والوحدة وأفكار عدّة تتلاطم في رأسها ، قد يبدو الأمر غريباً.. أليست هذه إرادتهما ؟ ألم تقرّر هي الابتعاد ؟ أليس هولا يستطع الارتباط الرسميّ ؟ إذاً لماذا هذا الضجيج ؟

هذا الموت المؤجّل..لماذا أحياناً نستمتع بالألم والدموع ؟ لماذا توقظنا الأحداث من الأقدار السعيدة ؟ لماذا ننهار أمام الحبّ رغم تحملنا سنوات من الضيم ؟

نؤمن بالموت..وغياب الأحباب أيضاً موت ، لكن مؤجّل.

-أنتِ أعلنتِ الحرب.

-أنتَ قسوت كثيراً ، تحدّثت معي بلهجة لم أعهدها فيكَ ، خاصّة عندما تقول: لم نكتب إلى بعض وعندما أطلبكِ للقاء أراكِ وحين تسمح الظروف بذلك!

«الأنانية وحش غريب يمكنه أن ينام تحت أشدّ الضربات عنفاً ثمّ يستيقظ مجروحاً حتى الموت بسبب خدش بسيط» هكذا يقول ألبرتو مورافيا.

ربما أخطأت أميرة في فهم ما قاله أحمد ، ربما فسّرت جملته التي استشاطت

منها ، وجعلتها تفقد قواها بغير الذي يقصد... لكن صحا داخلها ما كانت ترفضه منذ سنوات.

كلّ امرأة هي ملكة وأميرة في عين نفسها ، كلّ امرأة تستحقّ أن تكون السيدة في بيتها وحياة من تحبّ ، لا مكابرة في الحلم والحبّ ، لا مكابرة في الرغبة في عيش كريم.

أميرة كانت رافضة مبدأ الزواج المؤقّت أو زوجة الظلّ ، كانت تنبذ هذا الشيء لاعتبارات كثيرة ، تخصّها هي في المقام الأول ، وربما لمستْ سبب رفضها بعد أن خاضت هذه التجربة ، صعب جدّاً حين يكون الصراع بين القلب والعقل ، لكننا كنساء حين نودّ أن ينتصر شيء ما في قلوبنا ، نحاول أن نمنحه ثقة كبرى ، حتى نقتنع بأن لا شيء سيحول بينه وبين الفوز.

اقتنعتْ بالواقع المرير الذي كان يلوّح به أحمد دائماً ، أيقنت أنّ الأمال لا تعلّق على حبل من الأساطير والخرافات ، وأنّ الغد الذي تحلم به « لا « يجيء ، أيقنت أنّ قلبها الكبير الذي كان يلين وينسى وينكسر ويبكي ، لم يعد بمقدوره فعل ذلك بعد أن أصبح عليلاً.

طالما كانت تحاول أن تقرب المسافات ، لكنه يبعدها بـ»لا» ، كانت كلما فتحت نوافذ الأمل أغلقها ، فلم تعد تفهم شيئاً ، لأنّ كلّ شيء فيها تعب ، لم يكن عندها غير البكاء ، لأنّها تعلم أنّ الغياب هو المكتوب ، والفراق قريب ، وليس لها الحقّ في أن تطالبه بأيّ شيء.

تُرى إن رضيت أن تكون — زوجة خلف الستار- أو علاقة تحت — غطاء

شرعي-فهل ستطالبه باسترداد كرامتها حين يهاتفها ويقول لها : وهبتكِ المدّة المتبقية ؟ تماماً كما فعل ذاك الرجل بفاطمة.

الموت نهاية رحلة عذاب بالنسبة إلى النفوس النبيلة ، ونفسها من تلك النفوس التي تغزر بعطائها حتى وإن كانت تفتقر إلى المادة.

عندما نكون في حالة شقاء وبؤس ونتذكّر أوقاتاً سعيدة كنا قد قضيناها مع أحبابٍ لنا ، يعصرنا ألم شديد ، ربما لأنّنا لا نستطيع أن نرجع لتلك الأوقات مرة أخرى ، وربما لأنّنا لم نقبض عليها الزمن ونعيشها للأبد ، وربما لأنّنا سمحنا لظروفٍ نحن خلقناها ونحن قادرون على تغييرها لتقرّبنا بدل أن تبعدنا.

شتان بين علاقة زوجية في النور حيث يكون الزوج رفيق زوجته في كلّ حالاتها ، وبين علاقة شبه زوجية ، تتمنّى المعشوقة أن ترى محبوبها أوتلتقيه ، ولا تعرف كيف ؟!

طيف الفراق مازال يحوم فوق سماء علاقتهما ، أحمد يعد أميرة بأنه سيبقى معها إن تواصل معها بالرسائل أم لم يتواصل ، وإن اقترب أم لم يقترب ، فلسفة البقاء عنده هي أنّها في قلبه وانتهى الأمر.

أشارَ لها أكثر من مرّة أنّه لا يستطيع ولا حتى يحاول أن يفعل أكثر من هذا ، ويضع «الآن» تحت بند القدر ، لغة الحقيقة بسيطة ، لكنها مؤلمة ، والأكثر إيلاماً هو كيف نستوعبها بلا خسائر ؟

كيف نتقن الرضا بها بلا ألم ؟

لابدّ من مواجهة القلب والروح ، فليس كلّ ما هو مجهول بالضرورة أن يكون

جميلاً ، أحياناً نعرف أموراً كانت مجهولة ، ونتمنّى لو لم نعرفها لشدّة بؤسها ، مَنْ يقل الحقيقة يكشفْ عن قدر طاقتهِ ، فلماذا يريدان أن يحملا نفسهما فوق طاقتهما ؟

هكذا فكّرت أميرة... إن كانت تحبّ أحمد إلى حدّ الجنون فلماذا تريد أن تحملّه فوق طاقته ؟ هو لايقدر أن يعلنها زوجة أو يكون قربها ، وهي لا تقدر أن تتعايش مع هذا الواقع.

نعم الأمل يُبقي الحبّ حيّاً ، لكن ماذا بعد الأمل ؟ لماذا نفكّر حسب ما نعيش ، ولا نعيش حسب ما نفكّر به ؟ نعم الحبّ يقهر البغض ، ويقهر الحزن ، لكنه لم يقهر الاشتياق ، ولا يلغي المسافات إن لم يلتق الحبيبان ، علينا أن نخترق مرآة أنفسنا لنجد حقيقة ما نفكّر به.

أمنياتٌ مستحيلةٌ

أحمد كان يعرف مقدار حبّ أميرة له ، ويطلب منها ألّا تحبّه أكثر مما يحبّها ، لكن لا شيء يقال ، في داخلها ينبوع للحبّ تفجّر دون انقطاع ، حبّها له الكنز الوحيد الذي لن يتكرّر ، رغم أنّ الزمن بدأ يلتهم عافيتها ومسرّاتها ، إلا أنّها تلتمس الرجاء في الغد ، ربما يأتي بكرامة مخبأة ، ربما يفنى الألم ، ربما يشفق الدهر عليهما.

أميرة بالنسبة إلى أحمد نفسه ومرآته ، المرآة التي تستحقّ أن تراه بكلّ تفاصيله حتى تلك التفاصيل الدقيقة والصغيرة والعظيمة غير الظاهرة للناس ، وهو بالنسبة لها الهواء الذي بانقطاعه تموت أوصالها ، زمن افتراضيّ تعرف مداه.

الأمل يملأ الأفق ، كما الفرح في كلّ مكان ، إنه في ضحكة الأطفال ، في قرص الخبز ، في قطرات المطر ، في أريج الوردة ، في زقزقة العصفور ، في شعورنا بدفء الشمس أيام الشتاء ، في هيئتنا الجميلة التي جعلتنا أكرم وأجمل المخلوقات.

الأحلام الجميلة أيضاً تمنحنا حياة جميلة ، لكن الأجمل هو أن نسعى في تحقيقها ، فلا يوجد شيء اسمه مستحيل ، لأنّنا لم نحلم بخلقِ كون آخر!

الأحلام تولد عارية في أرواحنا ، وعلينا أن نكسوها ما يليق.

لهذا دائماً أتساءل: ما الذي يحجب الفرح عن حياة عاشقين ؟

ما الذي يمنع لقاءً أبديّاً ؟

شرع ، قانون ، دين ، عُرف ، اعتبارات واهمة..

أحمد يعرف أنّه غير ممكن اللقاء بأميرة في بلد إقامتها ، إلّا كزوجة شرعية ، فالقوانين صارمة هنا ، هي أيضاً تعرف هذا جيداً ، فسوّلت لها نفسها أن تنظر بعلاقة العرض والقبول ، أو لنقل العرض والطلب ، وكأننا سلع بائرة في سوق نخاسة!

أحياناً عندما نصل إلى مرحلة نعترف من خلالها أنّ بعض الأشياء غير حقيقية وزائلة ، قد تراودنا فكرة عدم التعلّق ، فكرة الانفصال عن العقل والتخلّي عن الحلم ، ربما ذلك يدفع بنا إلى التحرّر من كلّ الرغبات.

الخوف الذي يأتي من داخلنا أقسى من الخوف الذي ننتظره من حزام ناسف ، أو مفخّخة تحت سيارتنا ، أو ورم خبيث ينهش روحنا أو جسدنا ، فالأمر سيان هذا الزمن.

لا دخل للحظّ في جميع الأمور ، إرادة النفس لها التدخل في أن نصنع شيئاً ، ننتج جرة عسل ، نجعل حقل حياتنا مزهراً ، نرتوي من أشخاص نحبّهم ، نطوي المسافات بالسفر ، نغلق الكتاب الذي يشوه التاريخ ، وربما نمزّق أوراقه...إرادة النفس وحدها تأخذ بأيدينا ، وتوصلنا إلى شاطىء السعادة ، هكذا ننظر إلى الأمور نحن النساء عندما تكون إرادتنا قويّة.

لماذا لا نكسّر الأنظمة التي تقهر إنساناً ؟

لماذا لا نندم على ما نقترفه من تعاسة في حقّ الآخرين إلا عندما يرحلون عن الحياة ؟

أصبحت أميرة مثل الإسفنجة تمتصّ الحزن وتثقل به ، ثمّ تعصره في جُب ليلها ، لتنهض في الصباح ، وتعيش راضية بيومها ، فيكون الأمس سعيداً رغم

همومه ، والغد رؤيا لأمل جديد ، فهي تؤمن بأنّ الإنسان قادر على أن يوسع مبادئه مهما كانت ، وتدرك أنّ السرور لغة ثابتة لديها ، كما تعي تماماً أنّ صدق حبّها لأحمد لا يمكن أن يختلط بمعايير يفرضها مجتمع لم يضف إلى حياتها شيئاً.

حتى الصباحات بدت شاحبة رغم أنّ أميرة تحاول أن تنعشها ببعض العبارات أو الملصقات ، لكنّ شيئاً ما يحدث...!

لا المساءات ولا الصباحات باتت تشفي قلب أميرة ، فهي ظمأى إليه ، تحبّه وتتوق إلى أن تبلغ مرادها في وصله:

-أنت مشغول ؟ أردتُ الكتابة إليك ، والحديث معك.

-نتكلّم في وقتٍ آخر ، برنامجي المفضّل على التلفاز الآن ، وهذا الوقت تجتمع فيه العائلة ، وصعب أنفصل عنهم!

صعب على أحمد أن ينفصل من عائلته في هذا الوقت ليحدثها! لماذا لم يكن صعباً في تلك الأوقات!؟

ولماذا لم يكن صعباً في بداية علاقته؟ لماذا تلك التفاصيل لا يظهرها الرجل إلّا بعد أن تقع في براثنه الضحية ؟

شعرت أنّها بدأت تزاحمه في وقت تواجده بالبيت ، لا وقت لها عندما يكون خارج بيته في العمل ، ولا وقت لها عندما يكون داخل بيته بين أسرته!!

تقريباً غابت الملاطفة والكلمات الحميمة ، وحلّت مكانها مساحة شاسعة من الصمت والسؤال عن الحال والأحوال فقط.

في الأفقِ خيط وداع

أحد العظماء قديماً قال: «ما هو حقيقة في الداخل سيظهر خارجاً»

ليس ثمّة سرور أعظم من إدراك الإخلاص بعد اختبار المرء أفكاره ودوافعه ومشاعره.

كانت مشاعر أميرة تتّجه إلى أحمد بخطّ مستقيم دون أن تلتفت إلى جهة ، بينما أفكارها تتّجه إلى ما يطلبه أو يقوله ، وهذا كان دافعاً لأن لا تتعلّق به أكثر ، ، ربما فهمت أميرة ما يريده أحمد...ربما لا تريد أن تستوعب صراحته حين يطلب منها ألّا تتعلّق به ، أو حين يقول لها: لا أستطيع أن أفعل كذا أمر ، أو حين يقول: لا أظنّ أو لا أقدر أو لا أعتقد ، فقاموسه يزخر بـ «اللاءات «.

كانت الآلام تشتدّ عليها ، خاصّة حين يصيبها التوتر والحزن من أثر كلمة أو عبارة من ورائها مقصد كبير.

في يوم صيفيّ حارّ شعرتُ بأنّها ليست على ما يرام ، وما يوجعها شيء أكبر من المرض :

-أميرة... ما بكِ ؟ لستِ بخير هذه الفترة.

-متعبة يا صديقتي ، متعبة إلى حدّ الوجع والموت.

-أنتِ مريضة ، والطبيب نصحكِ بالاهتمام بصحّتكِ ، أيّ أمر آخر ممكن أن يؤخّر علاجكِ ، أو تحدث لكِ نكسة ، أخبريني ما بكِ ؟

دموعها سبقتها..كان لابدّ أن أتقمّص دور المواسي حتى وإن مازالت جروحي تنزّ:

-أميرة.. إن كنتِ تبحثين عن السعادة فأعلمكِ -من خلال تجربتي بالحياة- أنّ السعادة الوحيدة هي في انتظار السعادة.

-كيف ؟

-أعاتبكِ على أشياء كثيرة... نعم نحن ليس لنا سلطان على مشاعرنا ، لكن إن قادتنا إلى الحزن والقهر يجب أن نوقفها ، ربما تكونين أحببتِ أحمد أكثر مما ينبغي ، لكن لماذا ارتضيتِ أن تؤطّري علاقتكِ به بهذا البرواز ؟ هل أنتِ أو أنا ونحن في هذا العمر بحاجة إلى «متعة» جسدية ، أو تجربة حبّ عقيم ؟ أم بحاجة إلى استقرار عاطفيّ ، بيت فيه رجل يحمينا ، يسندنا ، يرى ما نحتاج إليه ، نتباهى به أمام الناس والمجتمع ، المجتمع الذي لا يرحم يا أميرة ، والزمن الذي لا يرحم أيضاً.

-لا تعاتبيني شامة ، ولا تلوميني على شيء ، أحببته وأحبّه وكفى.

-يجب أن أعاتبكِ ، يجب أن تنظري إلى حالكِ ، كوني واقعية أميرة ، الأحلام دمّرتنا ، الحبّ وحده لن يقاوم في زمن اختلطت فيه المبادىء والقيم ، وصار الرجل ينظر إلى ما يريد هو ، وليس ما تريد محبوبته ، ها أنتِ الآن أمامي ، انظري مدى حبّكِ لأحمد ، وما تعانين ، ماذا أضاف إليكِ ؟ سعادة لأيام معدودة! ثمّ ماذا ؟ حتى الأمل لا يستطيع أن يعطيكِ إياه... ها أنتِ تعانين وحدكِ ، تتألّمين ، تبكين ، وهو بين عائلته ، في أحضان زوجته ، هل يعلم أنّكِ مريضة ومقبلة على جراحة ؟

-نعم ، وتألّم كثيراً ، تمنّى لو يكون قربي ، لكن ظروفه لم تسمح.

-أيّ ظروف أميرة ؟ الرجل هو من يتحكّم بالظروف ، هو قادر على أن يصنع

المستحيل لو أراد شيئاً ، لماذا نعلّق ضعف إرادتنا على شماعة الظروف ؟ هل عرف أنّكِ بحاجة إلى مال لإجراء الجراحة ؟

-نعم ، أنا أخبرته أنّ الجراحة مكلفة ، وفيها نوع من الخطورة.

-ثم ماذا ؟

شهقت بالبكاء أميرة ، اختنقت ، تعوزها رئة ثالثة لتتنفس ، ويعوزها قلب آخر سليم ليساعدها على تقبل الحياة ، تعوزها دروب أخرى وأقدام غير متعبة لتواصل مسيرة ما تبقّى لها من عمر.

حضنتها ، ربما لتشعر بأمان ، تعاطفت معها ، فإنّ من المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الأخ بأخيه أو الحبيب بحبيبه حتى إذا أفضى كلّ واحد إلى صاحبه ببثه.

بينتُ لها أنّها امرأة لها مكانتها ، بيّنتُ لها قوتها حين تركت وطنها وديارها من أجل أولادها:

عرفتكِ قوية ، وصاحبة إرادة ، عشتِ عمركِ في التضحية من أجل الآخرين ، أرجو أن تعيشي من أجل نفسكِ لمرة واحدة ، لا يصلح السرور بغير أمن ، ولا الحبّ أو الزواج بغير إعلان ، أو حتى إن تغاضينا عن الإعلان لمراعاة ظروف أحمد ، لكن لابدّ أن يكون زواجاً صحيحاً دائماً ، حتى تشعري بالأمان ، وتكوني مسؤولة منه.

هل تستطيعين أن تقولي لي ما هذه العلاقة التي لا تمنحكِ الحقّ في شيء ؟! أنتِ أنثى حسّاسة ورقيقة ، والله أوجعتِ قلبي... كيف تتحملين كلّ هذا الألم ؟! كيف يقدر أحمد ، ويهون عليه أن يفعل هذا بكِ ؟!

هل استفاقت أميرة من حلمها الذي يلازمها حتى في يقظتها؟ ربما هي تعي وتعرف أَجَل علاقتها بأحمد، تعرف تماماً، فقلبها وحدسها وبصيرتها لن تخطىء، لكنها تكابر، وتعفو عن كلّ محادثة قاسية، سخاء روحها لا يدعها تمسك لجّة نبضها عنه، كانت تحتمل أذى الكلمة، كما احتملت أذى الدهر.

المحادثات بينهما أصبحت شبه شحيحة ، شيء ما غاب، شيء ما عكّر صفو هذه العلاقة، شيء تعرفه أميرة، لكن لا تريد أن تفصح به حتى لنفسها، شيء يقهرها إلى حد أنّ الدم يغلي في عروقها فتبرّده بالصلاة، ولا تدري هل أحمد يعي أمرها أم لا؟ هل يعي كم يؤذيها حين يتكلمان بموضوع ما ويقحم زوجته؟ هل يعي كم يؤلمها عندما تسأله عن شيء ويجيب بـ « لا أدري»؟

أحمد بدأ يقلّل محادثاته مع أميرة مراعاة لزوجته وظروف بيته، وكانت حجّته أنّه لا يريد منغّصات! وهي كانت تنتظر متلهفة ، لكن شتان بين الثرى والثريا!

هناك حكمة تقول: لا يخلو الحبّ أبداً من بعض الجنون، ولكن الجنون لا يخلو أبداً من بعض العقل.

حبّ أميرة لأحمد وصل إلى حافّة الجنون به، فلم تتحرّر منه، وتشذب ذاكرتها بكلماته حتى وإن كانت قاسية عليها.

أرخت العنان لقلبها وروحها، فأفقدها الرشد، واختلّ توازنها كإنسان، امرأة، أنثى، أميرة من زمن شهرزاد.

كم تكون المرأة طيبة إلى حدّ الطفولة حين تحبّ بصدق! كم تستوعب القهر، وتكظم غيظها حتى تصل قمّة الحلم.

هذا ما كانت تفعله أميرة ، تنام على دمعة ، وتصحو على أمل اسمه أحمد ، رغم أنّها تعرف جيداً أنّ هذا الأمل مستحيل.

هل باتت أسيرته ، أم أميرته ؟ ربما الحالتين..

المرأة التي تعشق رجلاً متزوجاً ، تؤلمها مخيلتها عندما يسدل الليل استاره على غرفتها وهي بوحدتها ، تؤلمها أمنيتها عندما يخبرها أنه سيسافر برفقة زوجته ، لكن الألم الأكبر هو تجاهله لمشاعرها ، أهماله لها ، بالإهمال ندرك ونستوعب الحدود التي يجب ألّا نتجاوزها.

حدود يضَعها الرجل بكلماته ، وردوده ، وتصرّفاته ، وتزداد يوماً بعد يوم ، فلم يعد بمقدورنا الوقوف على شرفة اليأس أكثر من هذا الحدّ ، لابدّ أن نخجل من أنفسنا ، ولأجل أنفسنا أيضاً ، لابدّ أن نتوقّف عند هذا الفاصل.

أميرة تألّمت كثيراً ، فلم يصفُ زمنها ، ولا ينصف معها ، هذا الزمان الشحيح بكلّ شيء.

بدا الوهن عليها.

لابدّ من الرحيلِ

فاض ألم أميرة ، حاولتْ أن تخفي ما ألمّ بها عن أعين زملائنا في العمل ، ركنتْ نفسها في زاوية مكتبها ، وجلست تبكي بحرقة ، حتى شعرت بها فاطمة:

-أميرة ، ما بكِ ، لماذا البكاء ، تتألمين من شيء ؟ آخذكِ إلى المستشفى ؟ تبدين كأنّكِ مختنقة.

-لا شيء فاطمة.

تقول فاطمة: كانت ترى حزناً وقهراً في عينيْ أميرة ، لم تره إن اجتمعت أرامل الجنوب ، كانت تشمُّ رائحة الغياب بأنفاسها.

قلت لها لن نتركها هذا اليوم وحدها ، سنرافقها ، ونبقى معها حتى نطمئن.

-أنا بخير ، لا تقلقن « بس شوية حنّيت لهلي»

-لا... السبب أكبر من الحنين ، «أحمد مو ؟»

أميرة لم تتمالك نفسها ، شهقت بالبكاء ، ثمّ أخذت نفساً عميقاً ، حاولت أن تملأ رئتيها وقلبها وكلّ خلية في جسدها ، حاولت ألّا تترك فراغاً في أيّ جزء ، مسحت دموعها ، وابتسمت لنا وكأنّها تعلن انتصارها على قهرها وحزنها:

- أنا بخير ، تعلّمت كيف أتحمّل وجعي.

-كان عليكِ أن تجعلي بينكِ وبين أحمد ترقّباً لزواله ، حتى لا يباغتك فقده.

-لم تصل الأمور إلى الفراق.

-سوف تخسرين نفسكِ هكذا ، أين هو الآن ؟ مَنْ قربه ؟ مَنْ تؤنسه ؟ وأين

أنتِ ومن معكِ ومن يؤنسكِ ؟ أميرة ، رتّبي أفكاركِ ، عيشي حياتكِ ، نحن نحبّ لنسعد لا لنشقى ، لا تطمعي بما هو ليس لكِ ، وربما هذه الصدمات جيدة ، لتدركي أنّه ليس لكِ ، وأنكِ بالنسبة له حبيبة ، محبوبة ، معشوقة فقط ، ربما هذا ليس وقت الكلام ، لكن يعزّ عليّ أن أراكِ تتعذّبين ، تذبلين ،وأنتِ التي كنتِ لا تهتمّين ب « أكبر رأس»!

أين مبدؤكِ ؟ أين أميرة من نفسها ، أين ضحكتكِ وروحكِ المرحة ؟

-حبي له أكبر من نفسي ، وأعتذر لنفسي لأنّي ارتضيت لها هذا العذاب والألم.

-قومي ، انتهى وقت الدوام ، انظري إلى نفسكِ على أنّكِ امرأة مميزة ، تستحقّين العيش الكريم في ظلّ رجل قربكِ يكون خيمة لكِ.

انتكست صحّة أميرة للمرة الثانية ، الضغط النفسيّ والتوتّر عدوان عنيفان لمرضها ، لم تتحمّل ما حدث ، فقضت ما تبقى من اليوم وليلته واليوم التالي تحت جهاز الأوكسجين ، وما فائدة هذا الأوكسجين وهي تعلم أنّ أحمد هو أكسير الحياة ، كان يقف أمامها في ساعات إغفاءتها ، كما هو بهيبته ، وقلبه ، ووجهه الذي صار مرآتها ، كانت ترجوه أن يقترب أكثر ، أن يفكّ قيده ويتحرّر ليعانقها ، كانت تريد أن تشمّ عبيره ، فقد اختنقت من رائحة الدواء ، ترجوه أن يمدّ لها يده ، تصرخ ، وتصرخ.. لكنه ينظر إليها بعينين دامعتين ، وكانت يدها أقصر من أن تصل إليه لتمسح دمعته ، يعلو صوتها...فتفتح عينيها على يدٍ حنون تمسد رأسها :

-»باسم الله عليچ أمي»بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله.

إنّها امرأة كبيرة مباركة ، مرافقة لإحدى المريضات ، يبدو أنّ حال أميرة كسر

قلبها ، فجعلها تحنو عليها ، ربما لم تسمع ما قالته أميرة ، لأنّ جهاز التنفس كان يغطّي فمها ، لكنّها بالتأكيد سمعت تمتماتها.

-»باسم الله عليچ الرحمن الرحيم فديتچ ، كنتِ تحلمين أمي ، الحمد لله بطلتِ عيونچ ، الدكتورة الحين بتيي بتشوفچ ، ما شاء الله عليهن ربيعاتچ ما خازن عنچ».

لهجة العجوز الإماراتية الحلوة التي تذكّرنا بأهلنا في الريف العراقيّ الجميل ، اعتقد أنّ للهجات جذراً واحداً ، جذر يتفرع حتى يشقّ الأرض ، وكلّ فرع يتّخذ جهة وزاوية وقبلة ومسار وخطّ ، لكن في النهاية نلتقي بكلمة .

لابدّ أن تكون هناك كلمة مشتركة بين جميع لهجات العالم.

لو خُليت بُليت ، هكذا كنّا نسمع ، نعم لو خليت الدنيا من الناس الطيبين لقلبت على دابرها ، ما زال الخير يعمّ الدنيا والقلوب الطيبة ، التي لا ترجو سوى ابتسامة الغير.

نظرتْ فاطمة إليّ وهي تشير إلى أميرة ، كيف مسكت يد المرأة العجوز بقوة وكأنّها تشكرها.

كانت تتمنّى أن تمسك بيد نبضها الذي صار أضعف من نبض قلب عصفور ، كانت تتمنّى أن يكون هو من يمسّد رأسها ، هو وحده من يخفّف وجعها ، لكن الواقع المرير شحيح مع أميرة حتى عندما تتمنّى.

جاءت طبيبتها مبتسمة كعادتها ، ورفعت جهاز الأوكسجين بعد أن طلبت من الممرّضة أن تحقنها بإبرة تحت الجلد:

-»الحمد لله على السلامة أميرة ، نحن شو گلنه المرة اللي طافت ، ليش

يالسة تسوين چي بعمرچ « هذه المرة الثانية التي تتجاوزين فيها تجلّطاً ممكن أن يتسبب في قتلكِ ، الله يحبّكِ يا أميرة ، لابدّ أنكِ فاعلة خير في دنياكِ.

ستبقين هذه الليلة تحت الملاحظة ، وغداً صباحاً أو ظهراً سنرخصكِ للبيت.

«ربّ حياة سببها التعرّض للموت ، وربّ منيّة سببها طلب الحياة» لكن بعض الأماني تعقبنا الحسرات على ما أوهمنا أنفسنا.

طلبتُ من فاطمة أن تغادر المشفى ، لأنها كانت تبدو متعبة أيضاً ، وبقيت مع أميرة ، وبعد أن غفتْ ، خرجتُ من غرفتها لزيارة المرأة العجوز في الغرفة المجاورة ، وسألتها عن ابنتها.

عرفتُ أنّها موظّفة في الاتصالات ، اسمها اليازية.

-الله كلش حلو اسمها.

-أنتِ عراقية ؟

-أي خالتي.

-ما شاء الله رمستكم وايد غاوية.

-وأنتم بعد حلوة سوالفكم ، وحلوة بلادكم.

-هلچ هني يا امي ؟

-لا ، خالتي أهلنة نص بالعراق ونص طالعين ، كل واحد بصوب.

-الله كريم يا أمي ، والله يجمعكم على خير آمين ، نحن هلچ هني ، وان بغيتي أي شي ترانا في الشوفة فديتچ

-ما تقصرون فدوة لگلبچ.

جميعُنا في الهوى سوا

اغتنمتُ فرصة نوم أميرة ، والهدوء الذي يطغى على المكان ، ورحتُ أدردش مع اليازية ، بينما والدتها كانت تصلّي في ركن الغرفة.

كانت فتاة لطيفة جدّاً ، تبدو من هيأتها في الثلاثين من عمرها ، هادئة جدّاً بحديثها ، ومتحفّظة أيضاً.

سألتني عن جنسيتنا وعملنا وأوضاعنا ، وكيف تسير الحياة بعيداً عن الوطن والدار ، وهل نشتاق لأهلنا أو المكان الذي كنّا نعيش فيه ، وكيف كان والدها يقصُّ عليهم أوضاع العراق وخيراته وخاصّة البصرة ، وكيف جاء بتالة من فصيلة البرحي وزرعها في حديقة دارهم ، ومازالت تثمر حتى اليوم.

كنتُ سعيدة وأنا أستمع لها ، ثمّ سألتني عن سبب وجود أميرة بالمشفى ، قلتُ لها: الحُبّ!

كأني أعطيتها مفتاح الأمان بهذه الكلمة ، أو فتحتُ لها باباً لتخرج سرب همومها ، دردشنا كثيراً...

اليازية لم يمض على زواجها ثلاثة شهور ، تزوجت عبد الله بعد قصّة حبّ دامت فترة قصيرة ، كانت تريد أن تبني بيتًا وأسرة وأطفالاً ، حالها حال أيّ فتاة طبيعية ، أقصى أحلامها أن تتزوج وتنجب وتعيش في كنف زوج يحبّها ويرعاها.

تقول: لم يحدث بيننا في ليلة الدخلة ما يحدث عادة بين أيّ زوجين جديدين ، لم يتقرّب منّي ، لم يرفع أكليل العرس عن وجهي ، خمّنت أنّه ربما

خجول ، أو مرتبك ، لأكن أنا أشجع منه ، نزعتُ الأكليل من فوق رأسي ، وغيّرتُ ملابسي بقميص النوم الأبيض ، وتعطّرتُ ثمّ اقتربت منه ، لكنه قبّلني على رأسي ، وأخرى على خدّي ، ثمّ أخذ مكانه جهة السرير الأخرى ، ونام.

-معقول ؟

-نعم..قلت ربما الأمر عاديّ ، يعني يحصل هذا الأمر أحياناً ، ربما عندما نسافر شهر العسل يتجرّأ أو يكون طبيعيّاً ، إذ سنكون بعيدين عن الأهل والأقارب.

سافرنا ، وصلنا متعبين ، أخذت شاور ونمت ، وهو كذلك فعل ، في الصباح فطرنا ، وتبادلنا الحديث حول الأماكن التي سنزورها والأسواق ، ثمّ خرجنا.

عدنا في المساء وتهيّأت كالعادة ، لبست ، وتعطّرت واقتربت منه ، بل التصقت به ، فأخذني في حضنه بقوة ، لكن شعرت بيديه ترتعشان ، وأنفاسه تكاد تختنق ، فابتعدت ، ونظرت إليه ، كان مرتبكاً ، خجلتُ من نفسي حقيقة ، لم أتكلّم بشيء ، أدرتُ وجهي ، ونمتُ..

استمرّ هذا الوضع أسبوعاً كاملاً ، شعرتُ أنّ هناك أمراً ما ، وكان لابدّ من معرفته.

توسّلتُ إليه أن يخبرني بالأمر ، وإلّا سأتركه ، وأعود.

وكانت الصاعقة ، اتّضح أنّه « عنين» !

حين أخبرني ودمعته تغرق عينه ، لم أتمالك نفسي ، بكيتُ بحرقة ، بل بشكلٍ هيستيريّ ، كيف؟ لماذا؟ طيب.. ماذا أفعل؟ كيف سأتصرف؟ ماذا أقول؟

طلبتُ منه أن نقطع سفرنا ونرجع ، شعرت بأزمة نفسيّة حادّة ، كآبة ، وتوتّر.

لم نتكلّم طوال ساعات الطيران ، حتى وصلنا إلى بيت أهله حيث نسكن.

-هل طلب منكِ ألّا تتحدثي بالموضوع أمام أهله أو أهلكِ ؟ هل أهله لديهم علم بأمره ؟ والله قصّتكِ كنتُ أراها بالأفلام فقط.

-لم يطلب شيئاً ، فكرت أن أذهب لأهلي وأخبرهم ، كنت في وضع لايسمح لي باتّخاذ أيّ قرار ، كنتُ بحاجة لنصيحة أمّي ، أبي ، أخوتي الكبار.

لم أكن أتصوّر أنهم سيخذلونني ، نظرة المجتمع عندهم أهمّ من حياتي وسعادتي ومستقبلي.

قالت والدتي: إياكِ أن تتحدّثي بهذا الموضوع ثانية ، الناس ما ترحم.

للأسف مجتمعاتنا الشرقية مازالت لا تستوعب معنى أن تعيش فتاة مع زوج غير قادر أن يلبّي حاجاتها العاطفية ، رغبتها ، غريزتها أن تكون أمّاً.. مجتمعنا الشرقيّ يغمض عينيه عن هذه الحقوق.

قلتُ لأطلب منه ، هو رجل يقدر أن يختلق ألف عذر ليطلقني ، ليقل إنها غير مناسبة لي ، ليقل إنه لم يكن يحبّني ، ليقل حقيقته!

اليازية توقفت عن الحديث ، فوالدتها أنهت صلاتها وجلست قربنا ، كتبتُ رقم هاتفي على ورقة ، ووضعتها فوق طاولة صغيرة قرب سريرها ، وطلبت منها أن تهاتفني ، حتماً سنلتقي.

أنــوارُ الـسّكونِ

إن أدبرَ شيء فلابدّ أن يقبل شيء آخر.

كان المساءُ قاسياً، ثقيلاً، فالمساءات موحشة داخل ردهات المشافي، تشعرنا بعزلة ووحدة وانقطاع عن الخارج، نحتاج فيها إلى ذاكرة فارغة من المواجع، إلى أجساد قويّة ، إلى توقّف بعض الحواس، خاصّة حاسّة الشمّ التي تمتلئ برائحة « الديتول» ، وحاسّة السمع التي يمزقها أنين مريض يرقد بالغرفة المجاورة.

حاولت أن آخذ غفوة في السرير القريب من أميرة.

صحوتُ على صوتها تناديني لأجلب لها بعض الماء، ظننتُ أنّها كانت تحلم.. لكن لاحظت ضوء الشمس يصافح نافذتنا.

بعد الإفطار ومعاينة الطبيبة، جاءت فاطمة وبعض زميلات العمل لزيارة أميرة، تبادلنا أطراف الحديث حول الصبر وتحمل الشدائد والتلاطف، كما هو معتاد في مثل هذه المواقف، ثمّ قمنا بترتيب إجراءات الترخيص من المستشفى، وتهيئة أميرة لغرض الخروج والعودة إلى بيتها.

اليازية أيضاً تمّ ترخيصها، وكانت صحّتها تبدو أفضل مما رأيتها ليلة البارحة، سلمتُ عليها، واتّفقنا أن نتواصل ونتزاور عندما تتعافى.

كم نحلم أن نبحر مع النوارس في عيون الأحباب، أو نعيد تقاسيم ملامح وجوهنا للطفولة المفقودة، أو نلملم ما تبقّى من ريش فوق الأغصان لنصنع منه

وسادة الأمل ، كم نحاول أن نطول عناقيد الضوء المتدلية من سماء الرحمة ، كم نحاول أن نزرع الدروب بقرنفل الأنفاس ، أو ننقش فوق صفحة الأيام رجاء اللقاء بأحبّة غيبهم البعد ، وآخرون الموت ، وآخرون زيف التقاليد.

كم نحاول أن نلوّن أعتاب الدار ببياض الثلج ، أو نرسم فوق الشبابيك قوس قزح أثير ، كم نتمنّى أن يغيب صدى الحزن والرحيل من أجندة تاريخنا ؟

لكننا نعلم أنّ كلّ ما نحلم به ونتمنّاه محض خيال ، لينتهي بنا الحال إلى خطّ سير واقع الحياة مرغمين.

عادت أميرة إلى بيتها برفقة فاطمة ، وأنا عدتُ إلى بيتي لأنّي كنتُ متعبة جدّاً.

بعد أن أخذت حماماً دافئاً ، جلست في سريري ، وأخذت هاتفي لأرى إن كان هناك أيّ اتصال أو رسالة ، ليس مهمّاً من أين ، المهمّ أجد شيئًا يشعرني أنّي في ذاكرة أحد!

لم أجد سوى مسجات من شركات الاتصالات والبنوك ومؤسّسات التأمين ، فأغلقت التلفون ، وجلست أقرأ رواية « أساتذة الوهم» لعلي بدر ، كنت بدأت قراءتها قبل شهر ، ولم أكملها.

تتناول الرواية فكرة الجماعات الشعرية في الثمانينيات ، بالكشف عن جماعة أدبية تطلق على نفسها جماعة « بهيّة» وهم فريق أدبيّ على غرار التجمّعات السياسية ، يؤسّسها مجموعة من الجنود الهاربين.

اعجبتني لأنّها كشفت الصفحة المخفية من الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية أيضاً في بغداد الثمانينيات: المقاهي الأدبية ، التجمّعات الشعرية ، الصحف والمجلّات ، كما أنّها تناولت الحياة المدنية تحت الحرب.

حقيقة أنا أكره قراءة التاريخ ، أو بشكلٍ دقيق الكتب التي تترجم التاريخ ، وتضعه في رواية أو قصة ، أشعر أنه يصلنا مشوّهاً ، يُكتب كما يشاء الكاتب أن يصفهُ.. أو كما يريد ولي الأمر أن يُكتب ، لكن وجدتُ متعة في قراءة ديوان اليعقوبي ومخطوطات البراقي والأعرجي والبغدادي ، جميعها تُحفزني أن أفتّش عن وجه أعرفه ، وعندما أتعب ولا أجده ، أكتشف أنّ التاريخ بريء من ذنوب البشر!

وصلت رسالة من اليازية ، تخبرني أنّها وصلت للبيت ، وهي بخير ، واحتمال كبير أن نلتقي هذا الأسبوع.

رسالة أخرى من فاطمة تطمئنني عن أميرة.

تذكّرتُ نفسي ، الوجوه التي مرقت في حياتي ، الكوارث والأزمات والحروب ، زوجي الشهيد ، أهلي وهم يرغمونني على الزواج ثانية من أخيه.. سامي.. آه .. سامي الذي رأيت فيه أبي عندما مسح دمعتي ، وأخي عندما وضع يده على رأسي ، وحبيبي عندما داعب قلبي برسائله المتقنة المعطّرة ، لكن عندما خذلني ، رأيت فيه جميع الغرباء الذين خذلوني ، والأقرباء الذين كسروني.

بين الاختيار والأقدار فرق شاسع .

هناك مَن يلوح بالفراق منذ البداية ، ولم نكن نريد أن نعي ، أو نقتنع ، فالحبّ حين يطبق لجّته يعمينا..

هناك من يقول القدر ، رغم أنّ القدر بريء من اختياراتنا.

قبلَ أن تمرض أميرة قلتُ لها: لا تلومي أحمد بشيء ، قد يكون أحبّكِ صدقاً ، قد رأى صورتكِ وأعجب بكِ واختلق مسألة الحبّ الطفوليّ والأزليّ ، التوقّعات والاحتمالات كثيرة ، هو لم يخطىء ،عرض عليكِ حبّه ، وأنتِ رضيتِ به كما أراد

هو ، أيضاً لم تخطئي بشيء الآن حتى يقاطعكِ ويهجركِ ، وينسحب بهذا الهدوء.

شهقت أميرة بالبكاء ، دمعها وحده يعرف سرّ حزنها ، دمعها الجمر وحده يختزل بؤس حالها ، مسحتُ دمعتها ، وأمسكتُ بكتفها وهززته بقوةلأخرجها من غفلتها:

- أميرة ، الندم يقتل الإحساس بالأشياء الجميلة التي نمنحها أو منحناها يوماً لأشخاص نحبّهم ، تذكّري أنكِ منحتِ أحمد قلبّكِ وروحكِ ، لو كان يحبّكِ لاكتفى وسعى ليكسبكِ ، لكنّه كان يريد أن يتمتّع بجسدكِ ثمّ يهجركِ ، النيّات الحسنة تقودنا إلى العطاء بلا حدود ، وبكلّ شيء ، نياتكِ معه كانت حسنة ، ولم تدّخري شيئاً لأوقات الشحّ ، منحتِه مساحة كبيرة من حياتكِ ، وهو الذي اختار التخلّي عن هذه المساحة ، لا البكاء ولا الندم يطيب الجروح.

قد يستقيم الظهر الذي تكسره السنوات ، لكن هل تستقيم النفوس والخواطر إن كُسرت ؟

بعد أيام التقينا في بيت فاطمة ، نرتّب لاستقبال خطيبها مؤيد ، ستصل طائرته من البصرة ظهر يوم الجمعة.

أعددنا كلّ ماهو لازم لأمور العقد ، زينة وحلويات ومفارش جديدة ، وصينية كبيرة مملوءة بالحنة والياس والشموع البيضاء ونسخة من القرآن وحامض حلو وچوكليت ، وساعدنا بعض الزملاء في ترتيب أمور المأذون الشرعيّ الذي سيعقد لهما.

« بصراوي عينه مكحلة بصراوي» كنّا نغني لفاطمة ، وهي فرحة جدّاً.

اليازية أيضاً كانت فرحة لفرحنا ، لكنّها مهمومة ، لاحظتُ هذا في عينيها ،

سحبتها من يدها وأجلستها جنبي ، كان هناك بعض الوقت حتى تبدأ حفلة فاطمة ومؤيد ، طلبت منها أن تكمل قصّتها ، كان لديّ فضول كبير لأعرف ردّة فعل عبد الله ، زوجها.

-عبد الله أمره بيد والدته ، وافق أن يطلقني ، لكن بشرط.

-ماهو ؟

-إن سألهم أحد من الناس فسيقولون: لم يجدني عذراء!

لا أدري أيّ تسمية تليق بهؤلاء.. لاهم رجال ولا هم ذكور ، لا أعرف الغاية من وراء كلّ هذا ؟ اللذة من تعذيب امرأة ، تركها معلّقة ، اغتصاب حقوقها لأجل وهم التقاليد والأعراف البالية.

والله تمنّيت أن يصنعوا خرقة تكشف رجولة الشاب مثل الخرقة التي تنتصر للبنت الباكر!

اليازية وأهلها طبعاً لم يرضهم هذا الشرط البائس المجرم ، فبقيت تحت جُنح عقد على ورقة مركونة في آخر درج من طاولة التسريحة.

نظرتُ إلى أميرة ، وجهها يبدو شاحباً ، هادئاً ، فقدتْ حيويتها ، يدها مازالت تمسك بالهاتف ، وكلّ دقيقة تفتحه وتغلقه ، هل مازالت تتأمّل رسالة من أحمد ؟

ماهذا الحبّ الذي يعلق بخلايانا ، ويسري في أوردتنا ، وعند الآخر مجرد قطرة عرق بلا طعم يمسحها بطرف يده ليرميها بعيداً ؟

-شامة ، والله لم أخطىء بحقّه حتى يهجرني ويتركني ، لكن لا تتوقعي أني أنتظر عودته ، لا.. أبداً ، إيقنت أني كنتُ أعيش وهم الحب ، وليس الحب ، يكاد الندم يأكلني ويشربني ، كيف سمحتُ لنفسي أن أتمادى بهذا الكم من المشاعر لرجل لم يمنحني الأمان ؟ كيف سمحت لخطواتي تتعكّز على عصا عمياء ؟

تسير في درب خارطته ضباب!

-المهم حبيبتي ، أنكِ وصلتِ لهذه القناعة قبل فوات الآوان.

-نعم.. هدر مشاعرنا بحبٍ عقيم ، يترك أفئدتنا خاوية ، مرهقة ، أنا لا أبكي عليه يا شامة ، بل على قلبي الذي صنتهُ طويلاً ثم أهديتهُ لمن لا يستحق.

-هذا هو خطؤكِ ،كان لابد من التريث ، هو كان يريد أن يقضي وقتاً بعقد المتعة دون تكاليف وخسائر ، لكنكِ وضعتهِ أمام تضحية لا يقدر عليها حين طلبتِ منه عقد زواج دائم.

لن يضحي بخدش نفسه أمام عائلته ، يريد أن يبقى بنظرهم الأب المثالي والزوج الوفي المخلص من جهة ، ويستمتع بحياته معك من جهة ثانية ، هل استوعبتِ ؟

نعم استوعبت أنّ زمن الفواصل في علاقتهما انتهى ، وربما حطّ أحمد نقطة النهاية ، ويريد من أميرة أن تلاحظها بنفسها ، وقد تكون لاحظتها لكن تعلّقها أعمى بصرها وبصيرتها.

جرعات الحزن الزائدة تشبه جرعات المخدّرات تماماً ، تقتلنا ونحن في لحظة لم ندركها.

الأحلام والرومانسية وحالات الحبّ والعشق الأزليّ مشاعر موجودة في الخيال والواقع ، نحن نقرّر ونحدّد إن كنّا نعيشها أو لا.

التنازل عن مبادىء نؤمن بها يقودنا إلى التنازل عن عيشٍ كريم ، يقودنا إلى متاهات غير سارة.

موسم القحط والشحّ حين يحطّ رحاله على أرض امرأة عاشقة ولم يغادرها ،

لابدّ أن تنتفض بكلّ مالديها من قوّة ، وتهرول إلى نفسها.

مواسم القحط العاطفيّ مثل الوباء الذي يجتاح كلّ ما أمامه ، إن لم نعفّر دواخلنا من الوهم والعلاقات الهشّة فلن ننجو.

أن نمارس العشق في زمن تنحّى عن المسرات ، زمن يغتال الآمال ويبارك الأغطية الشرعية المزيفة التي تجمّد الأوصال ، ويُعيب الأسقف الآمنة التي تقينا من بردٍ ومن جوع.

لابدّ أن نتلقّى صفعة تعيدنا للأثير الأول.

لهذا قرّرنا أن نترك السلام يخيّم على قلوبنا وأرواحنا ، لنهبط بأنوار السكون إلى أقاصي أوردتنا ، فيرويها لنتفتّح في دروب العاشقين زهرة نيلوفر.

« وصل العريس.. وصل العريس»